ما جرفه البحر

اسم الرواية: **ما جرفه البحر**

اسم المؤلف: **سلوى رواش**

تدقيق لغوي: **هاجر جابر**

تصميم الغلاف: **عبد الرحمن محمد**

إخراج داخلي: **مينا تادرس**

رقم الإيداع : **٢٠٢١/٧٠٧٨**

الترقيم الدولي: **٩٧٨٩٧٧٨٥٨٧٠٤٣**

جميع الحقوق محفوظة على الناشر ©

أي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

إبهار
للنشر و التوزيع

Email ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

سلوى رواش

ما جرفه البحر

إبهار
للنشر و التوزيع

إهــداء

إلى كل مشاكسة..

غامضة..

مرهفة..

ساحرة..

عذبة..

إلى ذلك المخلوق العجيب..

إلى المرأة

- ١ -

أعزائي المشاهدين، قدمت لكم النشرة المسائية.. هند الشناوي.

أكثر من عشر رسائل من الشلة!! على ماذا ينتوون!!

- ازيك يا رندة في إيه مالكم، خير!!

- انت فين يا بنتي، عايزينك ضروري، عدي علينا كلنا مجتمعين عند عايدة.

- عند عايدة! خير يا رب!!

خمس صديقات عُمر، لم تفرقنا الأيام إلا قليلًا، إن فرقت بعضنا يومًا، فلم تفرقنا جميعًا أبدًا في وقت واحد.

اجتمعنا في مدرستنا الإرسالية منذ أن كنا في الابتدائية.

أنا هند، مذيعة أخبار في التلفزيون، محط اهتمامنا هذه الأيام هي عايدة!

عايدة؛ أرملة، موظفة، لديها بنت وولدين، فقدت زوجها عبد الله في حادث أليم منذ خمسة أشهر! راح معه استقرارها! عايدة وظيفتها الحكومية لا تطعمهم عيش حاف مثلما دائمًا تخبرنا، أولادها مثل كل أولاد العصر الحديث؛ مطالبهم لا تنتهي. ربَّتهم بمنطق "انتو تذاكروا وبس"، "اللي تحتاجوه أبوكم يجيبه".

عبد الله موظف حكومي أيضًا! لولا مساعدته لوالده في محل بيع الأصواف والأقمشة في الأزهر، وأيضًا عائد بعض محاصيل الحمضيات الشتوية لكانوا في مستوى معيشي ضيق جدًّا، وصلتُ لبيتها، باقي الشلة هناك، دخلت وأنا منهكة من التعب، خلعت حذائي عند الباب، دخلت، سلَّمت، رميت بحقيبتي في حجر إيرين.

إيرين؛ صحفية وكاتبة، ترعى والدتها المريضة بعد وفاة والدها، لم تتزوج بعد، عملها هو كل حياتها، مرَّت بقصص حب فشلت بسبب ظروفها العائلية ومرض والدتها، تخاف من الارتباط الآن، وتسعى للهجرة بشدة.

انفعلت ضاحكة:

- هو كل مرة أنا؟؟

نظرت لها وأنا لا أستطيع الرد من التعب، أشرت برأسي:

- أيوة.

داليا:

– عايدة خلَّصت عِدتها، عايزين ناخدها ونخرجها يومين تلاتة إجازة.

داليا؛ برنسيس الشلة، الأرستقراطية، الأنيقة، الرقيقة كالفراشة، اجتماعية، لم تكمل الطب لتتزوج من حبيبها، هاجرت معه لأميركا ثُم عادوا لمصر منذ خمس سنوات، لا تزال تحبه رغم إهماله لها وتعجرفه عليها، وقته ليس لها، عندها ولدين تعلموا في أميركا وبقوا هناك، تسافر لهم مرتين في السنة، وتتمنى ترويض زوجها.

أكملت داليا:

– حاولي تقنعيها عشان مش راضية، مفيش حد غيرك هيعرف يقنعها.

أجبت:

– نسألها، ربما لا تحب اختياراتكم! ما هي اقتراحاتكم للرحلة، ومتى قررتم السفر؟!

أجابت رندة:

– هنروح شاليه سيدي عبد الرحمن بتاع داليا.

رندة؛ منطوية، أقلنا كلامًا، خريجة كلية الألسن، زوجها متعدد العلاقات، تسعى للانفصال، ويمنعها ابنتها ديما التي لا تزال لم تتزوج.

اعترَضَت على الاختيار:

– لا لا، اختاروا حاجه قريبة؛ عشان أقدر أبقى بينكم وبين الشغل.

ردَّت رندة:

– ممكن نروح فندق في العين السخنة!

اتفقنا على أن نذهب يوم الجمعة القادمة.. سأُحضر معي عايدة وإيرين، داليا ورندة سيحضرون معًا.

وصلت أنا وعايدة وإيرين، ما زلنا ننتظر حضور داليا ورندة، اتصلت بهن، الهاتف يرن ولا أحد يجيب، بعثت لهن برسائل نصية، لا يوجد أي رد منهما، قلقنا عليهن، ذهبنا للغداء ونحن نشعر بالضيق والقلق، كعادتها عايدة، باستطاعتها أن تغلي قالبًا من الثلج في ثوانٍ!

بكاء حار، ظاهره قلق عليهن، وباطنه أوجاعها التي نعرفها جميعًا ونحاول أن نجد لها حلًّا يخرجها منها.

إيرين استطاعت أن تتصل بديما –ابنة رندة– التي أخبرتها أنهن تحركن منذ نصف ساعة!! سألتها عن سبب تأخرهم، أخبرتها ديما:

– ماما ستخبركم.

رندة وزوجها وليد لم يكونا على وفاق منذ خمس سنوات تقريبًا، آخر عام انفجرت علاقتهما، شكوى رندة من إهماله لها وتعدد علاقاته لا تكاد تنتهي!!

إيرين:

– الراجل اتجنن ولا إيه؟؟ شكله مزعلها أكيد، ما هو مفيش غيره.

عايدة:

– اصبري تيجي وهنعرف.

أخيرًا داليا تتصل بي:

– أين أنتم؟؟ لقد قتلنا القلق عليكم!!

داليا:

– رندة متعبة جدًّا، لم يكن باستطاعتها أن تجهز في الوقت المتَّفق عليه.

طلبت منها أن تركِّز في الطريق، وأخبرتها:

– الوقت سيظلم قريبًا، وطريق السخنة يحتاج تركيزًا عاليًا.. تيجوا بالسلامة.

ذهبنا للغرفة لننتظرهم، استأذنا خدمة الغرف أن يحتفظوا لهم بطعام لحين طلبه.

– البيه المحترم يمد إيده عليا! أنا.. أنا رندة ماكين!! هو فاكر نفسه مين؟! ده أنا أودِّيه في ستين داهية، لولا ديما أنا كنت بهدلته!!

وصلت الصديقتان، داليا متعبة، ورندة تهدد وتتوعد، إنها أول مرة يقوم وليد بضربها!

عايدة هي الشخصية العاقلة في وسطنا، نعتبرها حكيمة الشلة، أما أنا فبإمكاني في مثل هذه الظروف أن أتواصل مع من يذهب ويعتقله بمكالمة واحدة! داليا لا تهتم بما تمر به رندة؛ فعندها من يشبهه -زوجها زين- ولكنها قررت أن تتعامل معه بأسلوب التجاهل، أما رندة فستقتلها الغيرة يومًا ما!

عايدة:

– رندة بصيلي، احنا كلنا باقي لينا شهور ونتم خمسين سنة!!

إيرين تنظر لعايدة وتتوسل إليها:

– أبوووووس إيدك بطلي تفكرينا.

احتضنتها عايدة وقبَّلت جبينها:

– إيرين انتِ أجدع واحدة فينا وهتشوفي، ربنا هيكرمك.

تنهدت إيرين بحرقة؛ فقد عاشت لخدمة أباها وأمها، ونسيت أن تعيش لنفسها.

عادت عايدة تحدِّث رندة:

– انتِ عايزة منه إيه، مش بيروحلك آخر النهار! بتستفزيه ليه؟!

نظرت لها رندة شزرًا:

– اعقليها يا عايدة.. لو عبد الله كان عمل كده، كنتِ هتتحمليه؟

– ممكن إني لا أتحمل تصرفاته، لكن أتحمله هو، أديه بقا خلاص، الله يرحمه.

أردفت:

– يا رندة عشرة العمر لا تهون علينا، خلاص ده جوزك، نصيبك، رزقك، ابتلاء، بلا أزرق، أهو جوزك وخلاص!

نظرنا لعايدة وهي تقول "بلا أزرق" بطريقتها الكوميدية، لم نتمالك أنفسنا من الضحك. أربع رقاصات بيضحكوا في الريزورت المحترم! وبَّختنا عايدة وقامت تركض لغلق الستائر، إيرين تعلِّق وهي تكاد تغص من الضحك:

– اقفلي باب البلكون يا بنتي مش الستاير.

عايدة نكاتها لا تضحكها هي، ولكن تميتنا نحن من الضحك، ملامح وجهها الساخرة أمهر من أي كوميدي مشهور، منذ كنا صغارًا كانت ترسل لنا النكات في ورق صغير، كانت سبب رفدنا مرة جميعًا، أخدنا يومين رفد بسببها، كنا في حصة مدام مادلين.. معروف عن مدام مادلين أنها من الممكن أن تجعلك تُصاب بالتبول اللاإرادي بمجرد نظرة، وها هي عايدة تستغبى وترسل لنا أوراق النكات في حصتها!!

عُدنا للتركيز كما أمرتنا الست عايدة.

رندة:

– أنا عايزة أتطلق، لا يوجد حل آخر.

داليا تنظر لها بحسرة، وتسألها:

– وهتروحي فين، تقدري تقوليلي؟ واحدة هتبقى خمسين سنة كمان شهرين، ولا عندك شغل ولا عندك ورث، اقعدي ساكتة، انتِ فاكرة اننا عايشين الحياة المثالية؟ مين مننا عايش الحياة المثالية! شاوري على أي واحدة مننا تعيش الحياة المثالية.

رددت أنا:

– أنا هند، أنا عايشة حياة مثالية.

ردَّت عايدة:

– جتك خيبة، بقى انتِ عايشة حياة مثالية؟!

أجبتها:

– من وجهة نظرك إني خايبة، إنما أنا عندما لمحت بوادر فشل زواجي، خلعته! الآن أنا حرة، أعمل، أموالي لي أنا، خروجات، فسح، فلوس، لبس، براحتي.

نظرت لي إيرين نظرة حيَّرتني! بادلتها النظر، وسألتها:

– فيه إيه؟

إيرين:

– مفيش!

– لأ فيه! هو أنا معرفش نظرتك دي معناها إيه! اتكلمي.

إيرين:

– طالما السيرة اتفتحت أتكلِّم، احنا مش صحاب؛ احنا اخوات، انتِ بتقولي إنك عايشة حياة مثالية، فين المثالية يا هند؟ انتِ عارفة إن ماسبيرو كله ملهوش سيرة غيرك انتِ والأستاذ بتاعك؟!

كأن دلوًا من الماء البارد سقط على رأسي! نظرت لهم بارتباك، ولم أعلِّق!

عايدة:

– فيه إيه يا إيرين، فيه إيه يا هند؟!

– اسألوها.

قالت إيرين وهي تقوم من أمامي. الكل ينظر لي، لم نعهد أن نكتم عن بعضنا أي سرّ مهما كان، حتى لو قتلنا قتيل، سنأتي ونخبر بعضنا البعض، ولكن هذا الموضوع لن أستطيع أن أفتحه معهم الآن، لا أريد أن أخسرهم بعد كل هذه الصحبة والأيام الحلوة، سيكرهنني، أعرف أنهن سيكرهنني، لا لن أخبرهن، ربما يوم آخر، لكن ليس اليوم! حاولت أن أغيِّر الموضوع.

– مش النهارده يا بنات، خلونا نتبسط، يلا شغلولنا حاجة نرقص عليها!

– نرقص إيه بس هو حد فيه حيل! بكره نرقص ونتبسط، ننام دلوقتي.

ردوا جميعًا! سرحت فيما قالته إيرين، إيرين، هل كان هذا وقته؟! أنا وإيهاب، فاحت رائحة حكايتنا؛ هذا ما أرادت إيرين أن تخبرهم.. إيهاب رتبة كبيرة في الشرطة، متزوج من ابنة مديره، مدير الأمن ذو الحيثية المقرب من شخصيات كبيرة في المجتمع، أعلم أني أعبث بعداد عمري بهذه العلاقة، ولكن هو سيحميني.

أنا أحبه وهو يحبني؛ بل يعشقني، سحرته بعد أول مقابلة لنا في حفل زفاف ابنة إحدى الشخصيات الصحفية المرموقة. أتعلَّق به لأنه ملاذي الوحيد في هذا العالم المتوحش، في هذا الوقت، إذا لم يكن لك ضهر ستذبح وتُفرم تحت الأقدام.

هل أريد أن أكون مثل رندة، زوجة مخدوعة! لم تعمل حساب أي مستقبل لنفسها، تنازلت عن شهادتها الجامعية ووضعتها في أقرب سلة مهملات، من أجل عيون وليد!

وليد؛ رجل الأعمال المتملق، الذي وصل في عهد غياب الضمير، في عهد "حوش كوش" و"اللي سبق أكل النبق"!

ماذا كانوا ينتظرون مني وأنا على مشارف الخمسين، وبدون ظهر! لا، لن أكون مثل عايدة، أتزوج لأنجب أطفال أربيهم فيكبروا عاقين، ولن أتزوج بعبد الله آخر عايش يوم بيومه! ولن أكون داليا، تعيش مع زين المتعجرف

يذلها بما يصرفه عليها، لا تحبه ولا يطيقها، اتفقا على أن يبقوا حياتهم هكذا بدون معنى حقيقي! واجهة اجتماعية مشرفة يحسدهم عليها الجميع، هكذا كان الاتفاق، هو لا يسألها أين كنتِ ولا أين تذهبين، وهي لا تعرف عنه أي شيء، مطمئنة أن الأولاد يتعلمون ويعملون في أميركا، تذهب إليهم كلما ضاقت به ذرعًا وكلما ملَّت تفاصيله، تذهب لترى أبنائها وتتسوق وتتنزه!

أنا لا أريد أبناء، هذه الدنيا لا تستحق أن ننجب لها المزيد من المهمشين! تزوجت في سن الخامسة والثلاثين حتى تضعف احتمالات حملي، منعت بكل الطرق ولكن شاءت إرادة الله أن أحمل بطفل، كنت حينها أتناول المهدئات بدون علم أحد!

نزل الطفل مشوهًا، مات بعدها بأيام في المستشفى، لم ألمسه، لم أحتضنه، طلبت بعدها الطلاق، لم يستجب زوجي؛ فقررت أن أخلعه.

أنا أكره الدنيا وتفاصيلها، أرفض أن أصحو مبكرًا، لا أعمل إلا في المساء، أسهر وأرقص حتى قرب الفجر، وأنام طول النهار، والآن أنا شارفت على الخمسين، بعد خمس سنوات سيستغنون عن خدماتي، يجب أن أعمل على تأمين حياتي، إيهاب يفعل ذلك.. تزوجنا عرفيًّا، أنا لا أفعل حرامًا!

وفي النهاية، لن أكون إيرين، تلك الراهبة القديسة التي عاشت من أجل أبويها، فشلت مرتين في إنهاء قصص حب بالزواج، كلهم رأوا حِملها ولم يردوا أن يتحملوه معها؛ فهربوا، أنا لست قديسة ولا راهبة.

تجمَّعنا على الإفطار في الصباح، ما زال التوتر يسود الجميع، رندة ما زالت تتذكر الصفعة التي نزلت على خدها، أنا وإيرين لا نتحدث تقريبًا، داليا تائهة كعادتها تتصفح هاتفها لتتابع آخر أخبار مشاهير السوشيال ميديا، عايدة بالطبع ساكنة حتى تستفزها إحدانا. الريزورت فارغ تقريبًا، أمر محزن، منتصف أكتوبر لا يوجد زائرين إلا بعطلات نهاية الأسبوع، وأعدادهم أيضًا قليلة.

"السياحة ليست كما كانت يا فندم"، أجابني مدير الفندق وهو يمر ليسألنا إن كان الإفطار قد أعجبنا، تبادلنا الحديث قليلًا، ثُم عرضت عليه أن نعلن له عندنا في القناة بمبلغ بسيط، أعطيته كارتي الشخصي ليتواصل معي لاحقًا.

ذهبنا إلى الغرفة لنبدِّل ملابسنا، فوجدنا سلة فواكه كبيرة مجاملة منه لنا، هكذا هي الدنيا، شيلني وأشيلك! قلتها وأنا أمسك بسلة الفواكه وأقرأ الكارت المكتوب، إقامة سعيدة، مهدي إدريس!

صحت بهن:

– ما تيجوا ننزل المياه، هتفضلوا قاعدين حزانى كده! هو احنا جايين نتفسح ولا إيه الحكاية؟

سحبتهم سحبًا للشاطئ، اجتمعنا بسائحين روس وبعض الأمريكان، وقليل من المصريين! الأغاني تُشعل الجو، فجأة بدأت وصلة رقص، جلسنا نشاهدهم، ثُم تسللت لنا النغمات، فحرَّكتنا، سحبت إيرين لأصالحها، ذهبنا لنرقص معهم، قامت داليا لتشجعنا.

جلسنا في المساء لحلِّ مشكلة رندة، تكلمت أنا أولًا:

- رندة، يجب أن تجدي حلًّا ناجحًا لمشكلتك مع وليد، إما أن تتفقوا أن تتفاهموا على وضع كما فعلت داليا مع زين، أو تطلقوا!

عايدة:

- هند معاها حق.. جنانك ده هيجبلك ذبحة وتروحي مننا، غيرانة اتطلقي.

داليا:

- هنعيده تاني؟! هتطلق تروح فين؟ قولنا البنت معندهاش مكان، أهلها متوفين وصاحب الشقة الإيجار القديم استرد شقته خلاص.

عايدة:

- غبية.. قولتلها ستين ألف مرة، حطي حاجتك فيها وروحي وتعالي يوم ويوم، تقولي لا وليد يزعل، خليه ينفعك سي وليد.

إيرين:

– سيبوها في حالها مش وقته تقطيم! أنا رأيي يا رندة إن ديما تتوسط بينكم، هي الوحيدة اللي تقدر تحل المشكلة دي، خصوصًا إن فرحها قرَّب وأكيد مش وقت مشاكل.

رندة:

– لأ مش ديما اللي هتحلها، أنا هحلها، أنا مش صغيرة، ديما فرحها كمان شهرين ومش عايزة أعكنن عليها.

عايدة:

– طيب رسينا هتعملي إيه معاه!

رندة:

– معرفش، بس لازم ألاقي حل.

رددت عليها:

– تحبي أحبسهولك يومين يعرفوه قيمتك؟

نظرت رندة في الفضاء، في اللا شيء، أنا كنت أمزح، لكن يبدو أن الفكرة راقت لها! وجدت رسالة على هاتفي منها: "تعالي برَّه نتكلم".

قضينا يومين فقط، الجميع ليسوا في مزاج جيد ليوم ثالث. اتفقنا على اللقاء الأسبوعي عند داليا الأسبوع القادم، نجتمع كل يوم سبت عند واحدة منا نقضي اليوم معًا، نعرف أخبار بعضنا، نتناول الطعام، نشاهد فيلمًا، لا نخرج هذا اليوم، ويوم آخر في وسط الأسبوع نتقابل في أي كافيه ساعة أو ساعتين

فقط. ما زالت عايدة شغلنا الشاغل، نريد أن نؤمِّن لها وظيفة تناسبها؛ وظيفتها الحكومية لن تجدي أي نفع، بالكاد تسترهم أسبوعًا واحدًا، ترفض أغلب ما نعرضه عليها! تخبرنا أن جد الأولاد أرسل لهم ما يكفيهم لمدة عام تقريبًا! لو كان عليها لكفاها لعشرة أعوام قادمة، إنما مصاريف وطلبات أولادها خارج مستواهم الاجتماعي، أكاد أصرخ فيها، "أنتِ السبب، أنتِ وعبد الله السبب!"

لا أعلم ما سبب بذخ هذا الجيل! كنا نرضى بالقليل ونسعد بما يشتريه لنا أهلنا، أرى أولاد عايدة دائمًا لا يعجبهم شيء! أتذكَّر عندما أراد ابنهم آخر إصدار من هاتف باهظ الثمن، أخبره والده أنه لا يملك المبلغ فضلًا عن أن يدفعه في هاتف! غضب ابنهم، ترك لهم البيت واختفى! عرف كيف يضغط على أزرار عايدة، هي ترتعد إن تأخر أحد أولادها عن العودة للبيت، فها هو يختفي! شبَّت نار بين عايدة وعبد الله وقتها، انتهت بجمعية ضخمة قصمت ظهورهم لكي يرضوه!

في وقت مضى كان الشاب سندًا لأهله، كان يعمل مع الدراسة لكي يفي بمصاريفه ولا يُثقل على أهله، اليوم أصبح الشاب عبئًا حتى الثلاثين من عمره! لن ألوم أحدًا، لا أعرف مَن السبب، لا أحب الخوض في السياسة، مع أنهم يطلقون عليّ "هند الاشتراكية"!

* * * *

- ٢ -

اليوم ألتقي إيهاب، يقسم نفسه بيني وبين بيته، أنا يوم وبيته يوم؛ ما عدا الأعياد والمناسبات، أقضيها وحيدة، سأسأله عن وظيفة لابن عايدة الكبير، ربما يساعد دخله قليلًا!!

- ابنها خريج تجارة يا إيهاب، شوفله أي وظيفة كويسة، نفسي أساعدها تعدي من أزمتها!

- حاضر يا حبي، عيوني لحبيبي وحبايب حبيبي، قومي كده فرفشينا شوية.

- نفرفش يا باشا وماله.

هذه هي الحياة الآن، تحتاج للفرفشة والطبطبة والنعنعة! كل ما يغيب العقل عن التواصل مع واقعه الأليم فهو فرفشة! فلنفرفش جميعًا، يقضي إيهاب الوقت معي في الضحك واللعب والسهرات، يفرغ مشاكله وهمومه وتعب عمله عندي، يخبرني أنه يعشقني، سألته يومًا:

– أعشقتها مثلي يومًا؟

يخبرني:

– عندما يحين موعد زواجنا، عندما يحين الوقت للتزاوج، نصبح أتباعًا للعرف والتقاليد، هذه ابنة عمك، لحمك، لا يخرج خيرنا لغيرنا.

يُكمل:

– هل كنت أحب وقتها أو عشق قلبي فتاة فأرادها، لا لم يحدث!

هكذا نتزوج، ثُم تأتي لنا الحياة بصدف الحب، نقابل الحب في الوقت الضائع. يؤكد لي على أنها قناعته في القسمة والنصيب؛ أنها تأتي دائمًا في الوقت الخطأ!

أصدِّقه دومًا، إنه ملاذي من قسوة الحياة وأقدار المستقبل الخفية، أعشق تفاصيله، هو عندي وسيم، وإن ضَخم حجمه قليلًا وخف شعر رأسه، أراه ضهر وسند، حبيب مشاغب، يمتعني ويغنيني عن سؤال اللئيم!

* * * *

الأسبوع القادم لقاؤنا، سيكون في فرح ديما ابنة رندة، مشغولات نحن بتحضير ما سنلبسه، نتفق جميعًا حتى لا نلبس نفس الألوان والموديلات، عايدة لن تحضر. تخبرنا:

– مش قبل السنوية يا بنات، مينفعش دي الأصول.

لن ننقاشها، فهي عنيدة كالثور في مثل هذه الأمور، أمور العادات والتقاليد التي أكرهها.

العرس في أفخم قاعات القاهرة، أرى وجوهًا مشهورة، صحفيون وصحفيات، أصحاب شركات معروفة، بعض الفنانين، وبالطبع سياسين.

لم أكن أتخيل فحش ثراء زوج رندة، هي تتحمل معه الحياة من أجل ذلك إذن، هي تعودت على هذا البذخ وهذا الثراء الفاحش!

كل ما حولي يشي بثراء غير بريء! هل هذا زفاف أم صفقات عمل؟! من يعيش في وسط هؤلاء يظن بأنه ليس هناك فقر ولا فقراء، لا يوجد عشوائيات سكنية ولا عشوائيات نفسية واجتماعية! وإن كنت أظنُّ أنه لا عشوائية أكثر مما يخفيه هؤلاء لأوطانهم من فساد! ياما البدل بتداري، سلطة ومحدش داري، وعجبي!

خرجت لأعدل مكياجي، رندة ووليد يتناقشان بصوت عالٍ في ركن في المدخل الرئيسي للقاعة! أسرعت وجذبتها:

– معلش يا وليد هاخد منك رندة ضروري معلش. فيه إيه يا رندة منظركم وحش، فيه إيه، مش قولنا نمسك نفسنا شوية؟!

رندة صامتة، تنظر لي وهي ساهمة كعادتها في الفترة الأخيرة، تائهة، تتكلم بكلام لا أفسره!

– أنا يا مش فاهمة يا مش سامعة يا رندة، رندة عدي اليوم ده على خير!

أخبرتها:

– بنتك مسافرة الصبح شهر العسل وصليها وتعاليلي نتكلم.

قبَّلتها واحتضنتها وباركت لها، عدت للقاعة، إيرين تقف مبتسمة، تتحدث مع رجل أسمر وسيم، أعتقد أني أستطيع أن أعرف من هو؛ أعتقد أنه مدير شركة سياحية تعاملت معها قريبًا عند سفري لألمانيا، نعم موريس حنا، أعرفه، بالتوفيق يا رب يا إيرين، أعتقد أنه أرمل بدون أطفال، ياريت يكون على إيده سعادتك يا بنتي!

مررت بجانبهم وغمزت لها، استحت وتحول لون وجهها للون الطماطم، شاورت لها،"ما تفضحناش"، ضحكت لهم ببلاهة ومشيت مسرعة من أمامهم!

* * * *

جاءتني رندة ثاني يوم، ما زالت تائهة، لا أعرف هل هي حزينة لأن ابنتها غادرتها لحياتها مع زوجها، أم أن هناك أزمة جديدة بينها وبين وليد! صنعت لها شايها المفضل، نظرت لي وشكرتني، لا بد أن الأمر ليس سهلًا! جلست بجانبها، وضعت كفي على كتفها:

– هونها تهون يا كبير!

نظرت لي وتنهدت بحرقة:

– الموضوع كبر أوي يا هند.

- خير يا رندة قلقتيني، فيه إيه حصل؟
- امبارح البيه عازمها على الفرح، فرح بنتي وبنته.
- هي مين يا رندة؟
- عشيقته السافلة.
- إيه ده هو بيعرف واحدة معينة عليكِ؟ احنا بنحسبه علاقات عابرة يعني!
- ما أنا كنت فاكرة كده، وهو ده اللي سبب مشاكلنا، لكن من فترة لقيت ماسجات، والبيه سايب موبايله عشان أشوف مش بيحاول يخبيه.
- لأ ده مستفز، أنا أحبسهولك زي ما اتكلمنا.
- أنا قولتلك لو ده آخر حل نعمله، وأنا دلوقتي بقولك لو بإيدك احبسيه، يتأدب يومين ويعرف قيمة بيته، أما هي فعايزاكِ تخوفيها، معرفش تعملي إيه، المهم تختفي من حياتنا! هند، أنا، أنا بتسرق عيني عينك، بياخد مجوهراتي هدايا ليها!
- نهاره أسود، سيبهولي، بس مترجعيش تعيطيلي وتقوليلي خرجيه!
- لا مش هقولك.
- اتفقنا.

* * * *

عندما تلعب مع الكبار، لا بد أن تصيبك نجاستهم!

كانت هناك قضايا كبيرة سترت حتى لا تفضح الكبار من رجال الأعمال، كان وليد له فيها نصيب، فلم يكن صعبًا أن يُحبس على ذمة قضية منهم للتحقيق وخلافه!

كانت أمي دائمًا تنصحنا، امشي عدل يحتار عدوَّك فيك، لكن أطماعنا تعمينا أغلب الوقت، لم يحتر أعداء وليد فيه، تم استدعاؤه في صفقة قمح مسرطن وتم حبسه على ذمة القضية، تم تجديد الحبس أكثر من مرة، خرج وليد ليصبح إنسانًا آخر، هدته أيام السجن، أصبح رجلًا صالحًا! حققنا لرندة مرادها، كما ظننا!

أنا ورندة فقط نعلم بما حدث، باقي الشلة لا تعرف بأمر العشيقة، ولا يعرفون سبب القبض على وليد، إلا أنه كان وشاية كيدية كما أخبرتهم رندة، أنا وهي فقط من يعرف بالسر الذي بيننا!

اليوم الاجتماع عند داليا، فيلا داليا رائعة الجمال، خدم وحشم مثلما يقولون، تعيش في جو جدها الباشا، باشا حقيقي وليس باشا مزيف من

الذين شبعوا بعد جوع فقرروا أن يستعبدوا الناس ليرضوا دناءة دواخلهم، تمسك بمروحة يد في عز ديسمبر، بدأ يظهر عليها علامات سن اليأس، لا أحب تغليف اسمه حتى لو سموه سن الفراولة بالقشدة، أنا أضيع أموالي في عمليات التجميل لأبقى نضرة من الخارج، أما الداخل فلن يتغير، أعلم أنه سن يأس من الولادة والأطفال وليس يأس من الحياة.

المعتدلين من الأطباء يرددون ذلك، أنا أجزم أنه سن اليأس من أن نعيد ما فاتنا، اليأس من أن نجد حبًا جديدًا أو أن نقرر الانفصال بحياتنا ونعيش لأنفسنا، فليكن يأسًا، ولكن علينا التعايش معه وليس الهروب منه!

مواجهه المشكلة أفضل بكثير من مداراتها وصنع أغلفة ملونة عليها، في النهاية، ما يهمني هو أنا، هو ما بداخلي، هو ما أشعر به وأحسه أنا وليس ما يفرضه علينا المجتمع ولا الأطباء!

بدأت الحديث:

– مين هيجي معايا بيروت، كريسماس ونطلع على دكتور إلياس باسيلي نعمل شوية تتش ابس!

عايدة تمصمص شفتيها:

– والنبي انتِ فايقة ورايقة يا هند، أخويا هايص وأنا لايص!

ضحك الجميع، قلت:

– قليل من التجميل يصلح العيشة يا أختاه.

داليا ورندة وافقن، إيرين أخبرتني:

– بالتأكيد لا أستطيع، مش هقدر أسيب ماما! خصوصًا العيد هيكون يوم سبعة يناير وصعب أسيبها في العيد.

إيرين قديسة، تتعامل مع والدتها كأنها تعي وتفهم الأحداث، طنط سامية لا تعرف عن الدنيا شيء منذ عشر سنوات، الزهايمر، يا إلهي، أحسد إيرين على أدبها وبرها لوالدتها، لم يمنحني القدر تلك العطية، توفيت والدتي وأنا صغيرة، وسافر أبي وتزوَّج في بلاد بعيدة، ولا أعلم عنه أي شيء، ربتني خالتي وجدتي وفقط.

ألححت على إيرين أنها لا بد أن تأتي معنا، أخبرتها:

– أنتِ تحتاجين فترة راحة وتغيير جو مثلنا. نظرت لعايدة: إيه رأيك يا عايدة تاخدي بالك انتِ من طنط، انتو ساكنين قريب من بعض وسهل إنك تقعدي معاها، وولادك يجوا يشوفوكِ عندها، هما أسبوعين بس!

وافقت عايدة على الفور، احتضناهم وأخبرنا عايدة سنأتي لها بكل الهدايا الممكنة.

* * * *

بيروت

بيروت، باريس الشــرق، مدينة المتناقضــات، مدينة الحرب والدمار والموت، وفي نفس الوقت مدينة العشق والحياة والجمال!

قضينا رحلة رائعة كالعادة، زادت معنا إيرين هذه المرة، فكان يجب أن آخذها للمزار المريمي بوسط بيروت، كما أخذناها لكل المقاهي التي نعشقها بشارع مار ميخائيل وشارع الحمرا.

صور كثيرة عند صخرة الروشة، وبالطبع التسوق وزيارات متكررة لدكتور باسيلي قمت أنا بها.

التقينا في إحدى الكافيهات الحديثة على صاحب كافيه، وسيم يشبه عمر الشريف قليلًا، فادي في نهاية الخمسين أو بداية الستين، لا أعلم بالتحديد، صاحب مقهى فرنسي في بيروت.

عاش بفرنسا طول عمره منذ كان في الثامنة عشر من عمره، رحل بعدما بدأت الحرب الأهلية في عام خمسة وسبعين، عاش ثلاث سنوات من صباه في رعب كما شرح لنا، سافرت باقي عائلته للبرازيل؛ هربًا من الحرب، أما هو فاختار فرنسا، عاد لبيروت منذ عامين تقريبا، وافتتح ذلك الكافيه الصغير الجميل!

الحروب! من يصنعها ومن يقع فيها! هل يُعقل أن هذا البلد العاشق للحياة يتحول فجأة إلى ثكنات حربية بين كل طوائف الشعب؟! حرب وحصار

وتدخُّل أجنبي وتدخُّل من العدو اللدود للجميع ومذابح للأبرياء؟! دائمًا الأبرياء هم تسلية الظالمين، ألم يصل لهم أنين الأطفال، صرخات الأمهات؟ ضحوا بمن؟ باستقرار شعبهم؟! بمستقبله؟ أكره كل من يفرِّق حبيبًا عن حبيبه، الوطن حبيب والشعوب هي الحبيبة، اللهم حنن قلوبنا على بعضنا وحببنا في أوطاننا.

التقينا فادي أكثر من مرة، أعجبنا موقع الكافيه وما يقدمونه من طعام، خاصة المعجنات والمشويات، عرف فادي أننا من مصر، فكان يصر على أن يمنحنا الشراب والعصائر مجانًا، جلس معنا أكثر من مرة ليخبرنا عن حلمه بأن يأتي لمصر ويستقر بها.

فادي؛ شخص لطيف، متحدث بارع، واثق من نفسه، جنتلمان، يخطف لب وقلب من يتعامل معه.

داليا ورندة الاثنتان تمران بظروف نفسية وزوجية، يشعران بالحرمان العاطفي، أقرأ أعينهن، كل منهن يتمنين قصة حب جديدة.

رندة أصولها شامية، تتكلم معه بلكنتهم، داليا تظهر عليها علامات الغيرة!

أكلنا ورقصنا واشترينا وتجملنا، جاهزين للعودة!

* * * *

عدنا للقاهرة واجتمعنا عند إيرين، حكينا كل الحكايات لعايدة، كانت تبتسم فقط، شكرناها على رعايتها لطنط سامية وأخرجنا لها الهدايا التي

أحضرناها معنا، أحضرنا هدايا لكل أفراد أسرتها، أخرجنا هداياها أولًا ثُم أخرجنا هدايا أولادها، فجأة وبدون سابقة إنذار وجدناها تصرخ فينا:

- إيه ده كله؟ طيب ليا وسكت وقلت مجاملة، إنما لأولادي ليه؟! حد قالكم إننا شحاتين ولا بنتسول؟!

نزل علينا صمت، وجوم وكآبة، ماذا يحدث؟ لملمت أشياءها فقط. شكرتنا وخرجت مسرعة، تاركة وجوهنا آخذة وضع الدهشة، أفواهنا مفتوحة، مذهولين، متسمرين لا ننطق، انتبهت وجريت وراءها، ولكني لم ألحق بها، اختفت.

* * * *

- ٣ -

مرَّ حوالي شهر منذ عودتنا من بيروت، الساعة الثانية صباحًا، يرن هاتفي، كنت في أحضان إيهاب، لم أنتبه أن أرد، جاءني اتصال آخر، وضعت عليَّ روبًا وخرجت من الغرفة بهدوء، الاتصال الأول من رندة والثاني من داليا، إيرين تتصل الآن أيضًا، يا إلهي! انتفضت من الخوف، رددت بسرعة وأنا أرتعش:

– إيرين فيه إيه؟

– فيه مصيبة سوداااا، البسي وحصلينا على بيت رندة بسرعة.

قلبي فزع، أخبرت إيهاب أن رندة في المستشفى وتحتاجني، كذبت! وصلت فيلا رندة في القطامية!

إيرين أحضرت عايدة، داليا جاءت بعدي تركض!! لا زلنا خارج الفيلا في سياراتنا! سألت:

– فيه إيه يا جماعة؟

ردت إيرين:

– هندخل ونشوف، بس رندة كلمتني وقالتلي إنها باين كده، قتلت وليد!

ضربت على صدري وكدت أصرخ، ولكن إيرين شدَّت على يدي لأسكت، اتصلنا برندة لتفتح لنا، أوصدت الباب عليها من الداخل!

فتحت وهي منهارة ومذعورة، بدأت في النحيب! عايدة تولول بصوت خافت حتى قبل أن ترى المرحوم، إيرين تمسك بداليا مرعوبين! دخلنا، وجدنا وليد مسجي على الأرض، لا يوجد دماء ولا رصاص ولا أي شيء!

– رندة، احكي اللي حصل بسرعة.

– معرفش، مش عارفة! هو كان بيتخانق معايا وجه يضربني زقيته وقع واتخبطت راسه في شفة الطاولة وبس! حاولت أقرب منه مبيتحركش خالص! قربت مش بيتنفس.

أخبرتها:

– طيب يمكن مغمى عليه، احنا نجيب الإسعاف! وحتى لو مات ده قضاء وقدر!

أمسكت بهاتفي لأتصل بالإسعاف، خطفت مني رندة الهاتف، تصرخ بي:

– هو مات، بقولك مات! وأنا هتسجن، هروح في داهية، أنا رندة ماكين هروح السجن وهموت بحسرتي!

عايدة جالسة تولول بصوت خافت تضرب على فخذيها، إيرين وداليا واقفتان لا تتحركان ولا تتكلمان، لا يوجد غيري متماسك قليلًا!!

- طيب هنعمل إيه في ليلتنا السودة دي، قتلتيه يا رندة، ارتاحتي! قوليلي نعمل إيه، انطقي!!

- معرفش معرفش.

- إيه اللي حصل بينكم؟

- معرفش، بس من يوم ما رجعنا من بيروت وهو مش طبيعي، ابتدا يخرج تاني ويسهر، أما بدأت أغضب كان بيقولي جملة واحدة "أنا عرفت اللي انت عملتيه وهيجي يوم وتدفعي التمن".

شهقت ثُم لملمت أعصابي، تصنعت الجهل وسألتها:

- يقصد إيه؟ انتِ عملتي إيه.

نظرت بعيني نظرة نافذة، ثُم نظرت للجميع وقالت:

- مش عارفة يقصد إيه؟

لا يوجد أحد يعرف ما جرى إلا أنا وهي فقط. مَن سيكون قد أخبره؟ لا يوجد تواصل تم بيني وبين أي أحد، وكَّلت الموضوع لإيهاب وفقط، انتهت مهمتي.

داليا وإيرين ما زالتا غير مصدقتين ما تريان، لا يتجاوبان معنا بأي طريقة، عايدة ما زالت تبكي وتولول فقط. أحدِّث نفسي:

- ماذا أفعل؟ هل أتصل بإيهاب؟! هل أفضح نفسي وأعطيهم أي دليل لتدخلي السابق؟ عمومًا رندة خائفة ولا تريد إبلاغ الشرطة!

- كملي، إيه اللي حصل.

- مفيش، هو جه متأخر من سهرة، وأنا كنت عادي بقوله انت فين وليه متأخر، واضح إنه كان شارب ومش موزون، ابتدا يلخبط في الكلام ويزعق: "أنا عارف اللي انتِ عملتيه" ابتدا يقرب مني، وفجأة ابتدا يخنقني.

وضعت يدها على رقبتها كرد فعل لما فعله، أكملت:

- بدأت أقوله سيبني وأزقُّه، فجأة وقع وراسه خبطت في الترابيزة وأغمى عليه، جبت مياه ورشيتها عليه، حاولت أفوَّقه مبيفوقش، حطيت راسي على قلبه مش سامعة دق، مسكت إيده مفيش نبض، اتنفضت وكلمتك، وبعدين كلمت داليا وإيرين.

حاولت أن أقنعها أنها بريئة ولن يُحكم عليها، أبت وقالت:

- أنا مدخلش قسم ولا محاكم لحد ما يبان براءتي.

سألتها:

- طيب هنعمل إيه؟

أجابت:

– ندفنه في أي حتة.

جاوبتها باستغراب:

– ســهلة هي؟؟ طيب ومحدش هيســأل عليه؟ بنتك، قرايبه، أهله، شركاؤه!

– معرفش، معرفش.

التفتت لداليا:

– نروح سيدي عبد الرحمن نرميه هناك في المياه!

صرخت داليا:

– انتو اتجننتوا! احنا شتا واللي بيروح القرية بيتسجل اسمه ومحدش بيروح إلا قليل وهنتفتش، أو حتى لو متفتشناش جثته هتظهر، لا انسواااا.

أدلت إيرين بدلوها:

– خلاص خليها تبان انتحار.

رددت:

– إيه السذاجة دي! انتحار ازاي يعني؟ ده مفيش نقطة دم واحدة، ووضعه كده واضح إنه وقع على راسه.

ردَّت:

– يمسك مسدسه ويضرب نفسه!!

رددت عليها:

– مش وقته يا إيرين الأفكار الصبيانية دي.

صرخت عايدة:

– خرجووووني روحووووني، أنا معايا أيتام أربيهم.

نظرنا لها وكأنه كان ينقصنا صراخها! نظرت إليها وأشرت لها:

– اخرجي وروحي انتِ يا عايدة!

لملمت نفسها وخرجت، لا نعرف كيف ستذهب لشبرا الآن، اقترب الفجر، ليس الآن وقتها لننشغل بها.. أسررت لنفسي. صرخت بهم:

– لازم حل، حد يفكر غيري، أنا دماغي هتنفجر!

صمت رهيب، فجأة طرأت لي فكرة ممتازة!! الفجر يشقشق!! لا بد أن نتحرَّك بسرعة. صحت بهم:

– هاتوا بطاطين ولفوه بسرعة.

في أقل من نصف الساعة كنا على الطريق للإسماعيلية، شاليه صغير خاص بإيهاب، نذهب إليه أنا وهو وحدنا، يتصل بي في أي وقت يناسبه ويخبرني "خذي أكل وتسالي واسبقيني"، المفتاح دائمًا معي لأي طارئ!! إيهاب

كان عندي بالأمس، لن يكون هناك خلال اليومين الجايين، مرتبط بمناسبة عند أهل زوجته!

– رايحين فين يا هند! "سألتني إيرين".

– شاليه ناس أعرفهم، ومش عايزة أسئلة دلوقتي.

قبل مدخل إسماعيلية بربع ساعة!! صف سيارات، حادثة!! ضربت بيدي على مقود السيارة من الملل، صدر صوت تنبيه مفاجئ. صرخت رندة:

– هتودينا في داهية يا هند.

يقترب منا ضابط، ملازم أول، وضعت أغاني بسرعة، اقترب من نافذة السيارة:

– فيه حاجة يا هانم؟!

ينظر داخل السيارة.. الكل متوجم!

– هيكون فيه إيه يا فندم، احنا بس بنسلي وقتنا. ردَّت داليا

نظر لي بريبة، ثُم انصرف، مرَّ حوالي نصف ساعة حتى فتح الطريق مرة أخرى.. سيارة محمَّلة بالبرتقال واليوسفي انقلبت.. مساكين هؤلاء السائقين، يلاحقون الساعات لتجميع ما يكفي أسرهم طعام ومصاريف أساسية، يعملون ليل نهار، يتناولون المنبهات ليبقوا يقظين! نعم أنا أتعاطف معهم وأتعاطف مع كل المهمَّشين.

وصلنا الإسماعيلية، كانت الساعة السابعة صباحًا تقريبًا، دخلنا القرية، لم يكن هناك إلا عسكري واحد، أدى التحية ومررت بدون أية أسئلة، أخذت أدعو "يا رب أدِم علينا سترك، يا رب احنا غلابة"

رندة وإيرين تدعوان باسم يسوع والعدرا ألا ننكشف، أما داليا فكانت تجلس بجانبي تلعب كاندي كراش! أقسم بالله إنها معتوهة، زين أوصلها إلى مرحلة عميقة من اللامبالاة، جعلتها تلعب بالهاتف ونحن قاتلين قتيل ورايحين نتاويه! لا بد أن أسألها عن نوع العقاقير التي تأتي بها من أميركا؛ سنحتاجها جميعًا قريبًا عندما يبدأ شبح وليد في مهاجمتنا في أحلامنا.

اشترينا بعض الطعام والأدوات في طريقنا، سنحتاج إلى حبل وثقل، ضربت رأسي بيدي. أخبرتهم:

– لقد نسينا أهم شيء، نحتاج إلى كرسي متحرك!!

أقسمت لهم أني لن أخرج مرة أخرى، لا أريد أن يحفظ وجهي ذلك العسكري الواقف، أو ربما جاء من هو أحدق منه وأحب أن يعرف من أنا وفي أي شاليه أقطن!

– نوصل ويحلها ربنا. قالت إيرين

دخلنا إلى الشاليه، وضعنا أغراضنا، رندة تسأل:

– هنعمل إيه وإمتى؟

– نفكر، مش دلوقتي طبعًا، لازم أما الليل ينزل علينا.

– الجثة ممكن تنفخ وتتقل علينا. قالت داليا

صحت بها:

– يختي بركة، صحي النووووم، صحيتي يا بيضا!

نظرت إليّ باستغراب:

– فيه إيه يا هند!

– مفيش، خلينا في المهم.

خرجنا إلى التراس الخارجي، أشرت لهم إلى لسان البحر.

– شوفوا، قريب جدًّا، أقل من كيلو، لو معانا كرسي بعجل هنقعده عليه ونرميه في المياه من عند آخر اللسان، محدش هيشوفنا، وهيبان كأننا بنتفسح مع حد كبير في السن!

إيرين تبكي ورندة ترتعش، داليا موافقة!

– بس منين الكرسي؟! أخذت أتساءل

جلسنا في غرفة الجلوس نتناقش.. صنعت داليا شايًا للجميع، احتسيناه وكل في ملكوته تائه، منفصلين عن الدنيا، لا نعلم كيف سينتهي بنا هذا اليوم! كنت خلالها أبحث عن هاتف أقرب صيدلية بها كراسي متحركة.. اعتذروا جميعًا بأنه "غير متاح الآن.. بالطلب يا فندم، وأسبوع للتوصيل". بحثت في مواقع البيع والشراء.

– أخيرًاااا، صحت: أخيرًاااا، يوجد واحد للبيع، تواصلت مع صاحبه.

– صباح الخير حضرتك عندك كرسي للبيع؟

– أيوه يا فندم، كان بتاع الوالدة الله يرحمها، اتوفِّت من شهر.

– البركة في حضرتك البقية في حياتكم.

– طيب حضرتك أنا في شاليهات قريبة هنا، ممكن حضرتك توصلهولي ضروري عشان نسيت بتاع أختي في القاهرة وأنا جاياها يومين نقاهة بعد العملية اللي عملتها.

– حاضر يا فندم، ساعة زمن ويكون عند حضرتك.

أخد العنوان ورقم الشاليه، خلال الساعة كنا تخفينا قليلًا؛ لا يجب أن يعرف أشكالنا، جهزنا رندة أن تظهر بمظهر المتعبة ببعض المكياج، وجدنا إيشارب، حجبتها وألبستها نظارة شمس وأجلستها على كرسي في التراس الخارجي، ووضعت على حجرها بطانية، أنا لبست باروكة أحتفظ بها في الشاليه، ووضعت عدساتي الملونة، أخبرت إيرين ودواليا أن يختفيا تمامًا، يجب ألا يعرف عددنا، تم كل شيء بسلام، استلمت منه الكرسي وانصرف، اتشاهدت، ذهبنا لنرتاح قليلًا.

بعد حوالي ثلاث ساعات وجدت دقًّا على الباب؛ ذلك العسكري الذي قابلناه عندما دخلنا:

– حضــرتك هتحتاجي أي أكل؟ فيه واحد بتاع ســمك حلو جدًّا وقريب، ممكن أروح أجيب لحضرتك سمك!

أخبرته:

– نعم نعم، أحضر لنا سمكًا وأرزًا وسلطات.

كام نفر يا فندم

– ثلاثة!

– متأكدة حضرتك! انتو أربعة.

مصيبة! انت لحقت عدِّيتنا؟ أسررت لنفسي

– لا.. الرابعة ممنوعة من السمك؛ عندها حساسية!

ضــحكت ضــحكتي البلهاء وأغلقت الباب، جاء بعد ســاعة ومعه أكلة الســمك، أغدقت عليه في البقشــيش، نظر إلى المائة جنيه غير مصــدِّق..

سألته:

– عايز حاجة تاني؟

– تحبي أجيبلكم حلويات؟!

اعتذرت وأخبرته:

– لا والله شكرًا.. عندنا اتنين سكر واتنين هيجيلهم قريب، قصدي عاملين ريجيم!

– أووووووف ده لزقة. تنهَّدت داليا

أكلنا، بدأت أقلق، ماذا لو جاء ذلك السخيف ليسألني إذا كنت أريد العشاء؟ أفكِّر، يجب أن ننهي الموضوع بسرعة.

– أنا رأيي نستنى لقبل الفجر.. مش مضمون أبدًا الوضع كده. قالت إيرين

– بس لو اتحرَّكنا متأخر أوي هنلفت نظر الحراسة. أخبرتها

– لازم نتحرك بسرعة، كده ممكن الريحة تبتدي تطلع! صاحت داليا

– كلامها مظبوط لازم نتصرف بسرعة، فكَّروا معايا! أكدت على كلامها

خرجنا وجلسنا في الخارج نفكر!! تجوَّلت حول الشاليه لأرى إن كان هناك أي أحد غيرنا.. اطمأننت أنه لا يوجد أحد، عدت بفكرة.. يجب إشغال الحراسة وقتها، رندة يجب ألا تكون معنا وقتها؛ أعصابها لن تتحمل المنظر، مهما يكن هو زوجها.

طلبت من رندة أن تكون جاهزة وقت التنفيذ، تأخذ السيارة وتذهب، تُقنع الحارس أن يأخذها لأقرب حلواني لعمل مفاجأة عيد ميلاد لإحدانا! ستكون حراسة جديدة، تقنعه وتقول: "نصف ساعة محدش هيسرق القرية" مع ابتسامة ساحرة، تعطيه مائة جنيه إكرامية قبل الانطلاق، لا أعتقد أحدًا يرفض عرضًا مثل ذلك!

نجحت الفكرة، أرسلت لي رندة، انطلقوا.. كانت تلك كلمة السر المتفق عليها، تمَّت العملية كما دبرناها، تخلَّصنا من الجثة، أجلسنا إيرين على الكرسي حتى لا يبدو أنَّه أصبح فارغًا، عدنا سريعًا. اتفقت مع رندة ألا تقترب من الشاليه قبل أن أعطيها الإشارة أننا انتهينا وعدنا!

جلسنا لا نتكلم لمدَّة ساعة تقريبًا، كلنا يرتجف من البرد ومن رهبة الموقف! تذكَّرنا أن الخطة فيها عيد ميلاد، يعني لازم صوت أغاني وضحك ودوشة، قامت داليا أوصلت هاتفها بالسماعات وأشعلت الشاليه أغاني!!

رحمة ونور على المرحوم، أسررت لنا، لم نستطع مقاومة الضحك!

وصلنا فيلا رندة مبكرًا اليوم التالي، توسَّلت لنا أن نبقى معها اليوم، أخبرتها لا أستطيع أبدًا، يجب أن أذهب لشقتي؛ إيهاب ينتظرني اليوم، توسلت لنا!! إيرين اعتذرت أبقت جارتها مع والدتها ولا تستطيع تركها.. داليا تبرَّعت بالبقاء معها.

ما زلت أفكِّر مَن الذي أخبر وليد ما فعلته أنا ورندة به عندما كنا سبب سجنه فترة على ذمة التحقيق في قضية القمح المسرطن؟!

* * * *

- ٤ -

مرَّ حوالي شهر على إخفاء جثة وليد، لا أخبار بمثابة أخبار جيدة كما يقولون! لم تظهر الجثة، بالطبع أبلغت رندة عن اختفاء زوجها، ولكنها كانت حريصة في التحقيق أن تذكر مغامراته العاطفية، وادعت أنه فعلها قبل ذلك وغاب عنها بدون علمها، ثُم عاد واكتشفت علاقته براقصة الملهى التي حضرت زفاف ابنتهم، تلك القصة جعلتهم يحققون مع الراقصة أكثر، رندة بنت ناس وزوجته ولا يوجد أي شهود على اختلافاتهم إلا ابنتهم!

ديما سافرت دبي مع زوجها بعد عودتها من شهر العسل، قلل هذا من التوتر، تسأل عن أبيها تخبرها رندة أَنَّه مسافر ولا تعرف طريقه.

عدنا إلى لقاءاتنا الأسبوعية، وعاد كل شيء كما كان! عدنا للاهتمام بأمور عايدة التي قتلها غيابنا عنها، ولكنها جبانة، هربت يومها، أربكنا صياحها ولطمها وولولتها، كان ضررها أكثر من نفعها، ولكنها معذورة لا ألومها،

تقابلنا عندها أول مقابلة بعد أن اختفينا عن بعضنا لمدة شهر لننسى ما حدث، بالطبع شكاوى من أولادها، الشكوى هذه المرة من ابنتها التي قررت أن تخلع الحجاب!

حاولنا إقناعها أنها ما زالت في السابعة عشر وصغيرة:

- اتركيها تأخذ قرارها.
- قرارها ده إيه، دي جنة ونار، أسيبها تدخل جهنم يعني؟
- يا ساتر عليكِ وعلى ألفاظك يا شيخة! أجبتها

قالت داليا:

- ربنا رحيم يا عايدة مش كده، إيه الكلام بتاع شيوخ الكاسيت ده!
- شيوخ كاسيت إيه.. ده قال الله وقال الرسول يا داليا!

ردَّت داليا:

- ما أنا محجبة وبقولك سيبيها، بكره يا ستي تكبر وتتحجب تاني، استريحتي من الرد ده طيب؟!

ردَّت عايدة:

- وهو انتِ فاكرة اللي انتِ لبساه ده حجاب. وخرج منها صوت تريقة

احمرَّ وجه داليا. إيرين ردت بغضب:

- فيه إيه يا عايدة؟! ما تاخدي بالك من كلامك!

فجأة جاء ردها على إيرين كالصاعقة:

– اسكتي انتِ يا كافرة.. انتِ كمان هتتدخلي في ديننا!

صحراء توسطتنا فجأة!! كأن رياح رملية ساخنة ضربت المكان فحوَّلته لصحراء قاحلة، حملت إيرين حقيبتها وركضت خارجة، ركضنا كلنا وراءها، ما عدا عايدة بالطبع. لحقناها لشقتها، احتضناها، أخبرناها أن عايدة ليست في كامل قواها العقلية منذ صدمة وفاة زوجها عبد الله. أخذت تبكي بشدة وتقول:

– ده أنا النهارده كنت جاية أقولكم خبر حلو.

شهقنا جميعًا نظرنا لطنط سامية، وجدناها تبتسم وكأنها تعرف الخبر الحلو.

– لاااااااا.. أنا هنزل أجيب حاجات حلوة من مونجيني وعصاير، عشر دقايق وأرجع اوعي تحكيلهم.

استطعت أن أعيد لها ضحكتها، عُدت بسرعة:

– قولي قولي.

إيرين:

– فاكرين الشخص اللي كنت واقفة معاه يوم فرح ديما؟

أجبتها:

- فاكرة جدًّا، وعارفاه كمان.

- ماشي يا ستي، ده مهندس ميكانيكا، أرمل بدون أطفال خمسة وأربعون سنة.. عنده شركة سياحة.. عرَّفتني بيه رندة في الفرح.

- كملي كملي، فرحينا!!!.

أكملت:

- بقالنا شهرين كده بنتقابل ونتكلم وعرف ظروفي كلها، حدِّدنا الجبنيوت الأسبوع الجاي بإذن ربنا، والإكليل بعد شهرين.

انطلقت زغاريدنا وأشعلنا الشقة أغاني ورقص.

- هتيجوا كلكم مفيش اعتذارات.

- طبعًا يا بنتي، احنا ما صدقنا نخلص منك.

أخبرتها وأنا أميل عليها راقصة، حضنتها وقبَّلتها في خدِّها قبلة عميقة، وانقلبت الليلة لضحك ورقص وفرح بعد أن كادت تنقلب لغم بسبب عايدة ونكدها!

* * * *

بعد خطوبة إيرين بيومين، فتحت عيني لأجد الساعة التاسعة صباحًا، أنا لا أصحو مبكرًا هكذا! ما الذي قض مضجعي اليوم يا ترى؟! ذهبت لأعد

القهوة، فتحت التلفاز، لم أنتبه للشريط الأحمر أسفل الشاشة الذي يحمل عادة عناوين أخبار عاجلة!

جلست لأشرب قهوتي.. عمل إجرامي إرهابي يُسفر عن مقتل مدير الأمن وإصابة معاونيه إصابات بالغة، صرخت:

– إيهاااااب!

إيرين تتصل بي.. رفعت سماعة الهاتف.. أصرخ.

– هجيلك.. نص ساعة وأكون عندك.. امسكي أعصابك.

وصلت إيرين، فتحت لها الباب وأنا أصرخ:

– عايزة أشووفه، عايزة أشووفه!

– طيب اهدي اهدي، أنا سألت واتأكدت إنه فعلًا كان معاه.

احتضنتني وأجلستني.. أخبرتني:

– هو دلوقتي في العناية المركزة، يعني ممنوع أصلًا الزيارة.

رددت وأنا أنتحب:

– مليش دعوة، مليش دعوة، أروح واتطرد.. بس أشوفه، محدش هيكون جنبه، أنا عايزة أكون جنبه.

احتضنتني وأخذت تقبل رأسي وتبكي معي حالي، أصرخ:

- ليييه، لييه! ليه كل ما نيجي نفرح نلاقي الحزن فاتح صدره لينا! هو احنا مكتوب على جبينّا الشقاء يا إيرين.. ردي عليا.. ليييه، اشمعنا احنا.. الغلابة اللي بننحت الصخر عشان نعيش!! اللي أول ما نلاقي ضهر يتكسر!! آه يا بلد معدش فيكِ أمان!

ردَت إيرين:

- والبلد مالها بس، هو فين الأمان في أي حته؟! ما انتِ شايفة العالم كله حروب وقهر ومرض! نهرب من إيه ونروح فين بس يا هند؟!

أبكي وأصيح فيها:

- خدي جوزك وهاجري.. مش كنتِ عايزة تهاجري؟ هاجري، وأنا أما يخف إيهاب هاخده ونهاجر.. خلاص.. اللي كان بيخاف منه مات.. أنا هاخد إيهاب ونهاجر معاكِ!

طلبت منها باكية:

- روحي ولعيله شمعة في الكنيسة، وأنا هنزل الجامع أصلي وأسجد وأدعي ربنا ينجيه وعرفيني أخباره أول بأول.

وعدتني بالشموع والأخبار، وتركتني لهمي وبكائي، ووحدتي. لا تتركني لوحدتي مرة أخرى يا إيهاب.. لا تتركني يا إيهاب.

موعد لقاءنا الأسبوعي.. لم نلتق عند عايدة منذ فترة بعيدة منذ أن تفوَّهت بكلامها العنصري البذيء! حضرت معنا جبنيوت إيرين وأحضرت لها

هدية.. إيرين قلبها من الذهب لا تحمل غلًّا ولا حقدًا؛ سامحتها واعتبرته إجهاد نفسي وضغط عصبي من عايدة.. سامحتها!

اليوم سنلتقي عندها.. بدا بيتها أفضل بكثير عن الفترة السابقة! منظَّم ومرتب.. أثاث جديد! يبدو أن عمل ابنها الكبير قد أسعد حظها قليلًا.. أنا سعيدة لها، صنعت لنا سفرة ضخمة، أخبرتنا بمناسبة خطوبة إيرين. سألنني عن إيهاب كيف حاله.. عرفوا ما حدث.. إيرين أخبرتهم لماذا لم أحضر لقاء الأسبوعيين الماضيين.. استأذنتني فأخبرتها أن تخبرهم، فقط تقول زواج ولا تذكر عرفي. أجبت:

– ما زال في العناية المركزة.. أفاق من الغيبوبة، ولكن حالته ما زالت حرجة..

نزلت دموعي.. سمعت دعوات وكلمات دعم، لكني أعلم من داخلي أنه لن ينجو منها وإن نجا فسينجو بإعاقة! ولن يكون لي في حياته مكان.. تنهدت وشكرتهن.

داليا سافرت لأولادها بعد خطوبة إيرين.. كلمتنا، سلمت علينا جميعًا.. وعدتني أن تعود سريعًا لتكون بجانبي ولتدعمني. لم تكن رندة اليوم في أحسن حالاتها، سألتها عايدة:

– مالك يا رندةظ شكلك مش عاجبني.. لا أكلتي كويس ولا بتتكلمي!

نظرت لها رندة ثم نظرت لنا:

– عندي ليكم أخبار مش حلوة.

نظرنا إليها جميعًا؛ ننتظر أن تكمل حديثها ونحن على أعصابنا، ما عدا عايدة، قامت لتصنع لنا الشاي، كأنها لا تهتم بما ستقوله رندة، أخبرتنا رندة:

– فيه حد بيهددني.. بياخد مني فلوس عشان ميبلغش البوليس.

– بتقولي إيه يا رندة؟

سألتها فزعة.. لا أصدِّق ما قالته!

– لا أعرف، يتَّصل بي من أرقام مجهولة وسرية. لا يقابلني، فقط أترك له المال ويرسل طفل صغير ليأخذها مني!

– ده شغل نصاب نص لبة.

علقت عايدة وهي تصب لنا الشاي، إيرين تسأل رندة:

– بيقولك إيه وبيكلمك كل قد إيه بالظبط، وليه مقولتلناش؟

تنهَّدت رندة وأجابتها:

– الحكاية كلها من أسبوعين بس.. هددني إن أخبرت أحدًا فسيقتلني!

أكملت وهي مكشره الجبين:

– بس أنا مش خايفة، هيعمل إيه يعني؟!

ردَّت عايدة:

– يعمل كتير؛ دول ناس مجرمين.. متعرفيش ممكن يعملوا إيه! لو منك أدفع وخلاص.

أجابتها رندة:

– مش مهم خلاص، أنا تعبت، كل يوم وليد بيجيلي في المنام يخنقني، أنا باخد أدوية تهدني عشان أعرف أنام من غير ما أحلم بالكوابيس دي.

– بيطلب منك كام يا رندة. سألتها!

– هو طلب مرتين، مرة طلب خمستلاف، وتاني مرة طلب عشرة كمان!

أجبتها:

– ده نص لبة على رأي عايدة.

نظرت لعايدة مؤكِّدة على وصفها للمحتال، ثُم أكملت:

– وبعدين، هتعملي إيه يا رندة؟

– معرفش، مش قادرة أفكَّر!

بدأت رسائل التهديد تصلنا تباعًا بعدها بيومين. أنا.. ثُم إيرين.. ثُم داليا.. ثُم عايدة.

الغريب أن رسالة داليا جاءت متأخرة عنا بشهر، وكأن الذي يهددنا يعرف أنها لم تكن بمصر كل تلك الفترة!!

اختلفت مبالغ التهديد، طلب مني خمسة عشر آلاف جنيه، طلب من إيرين وعايدة خمسة آلاف، وطلب من داليا خمسون ألفًا. أفكِّر متعجبة:

- نحن لا نضع أموالنا بنفس البنك، وإلا شككت في لص ذا قلب طيب يعرف ظروفنا ويلاعبنا!
- يجب أن نضع حدًّا لذلك النجس، أنا لن أدفع أي مبالغ أخرى. صاحت داليا ونحن مجتمعون عندها
- معكِ حق، يجب ألا ندفع له، أعلى ما في خيله يركبه، لن يسكت عن ابتزازنا. أجبتها
- في مَن تشكون؟ سألتهم

أجابت إيرين:

- مفيش غير الراجل اللي اشترينا منه الكرسي أو العسكري بتاع الحراسة.
- صعب؛ اللي اشترينا منه الكرسي وصله ومشي وشكله كان تعبان أو مريض، وشكله ابن بلد وطيِّب.
- مفيش غير العسكري، أصل هيكون مين غيره! أنا هتجنن، بكره أنا هروح الشاليه وأحاول أوصل لأي حاجة!!

داليا أخبرتني أنها ستأتي معي:

– لن أتركِكِ تذهبين بنفسك!!

اتصلت بي إيرين صباحًا قبل أن أتحرك للإسماعيلية.. إيرين:

– إيهاب فاق يا هند، مبروك يا قلبي.. فاق واتنقل أوضة عادية.. الزيارة من بكره، ده اللي وصلني من الممرضات اللي عنده!

لم أستطع كتمان دموعي، سجدت شكرًا لله، أشكرك يا رب، أشكرك أنك سمعت دعائي، وصلت داليا، قررت أن تتولى هي القيادة اليوم، أخبرتني:

– أنتِ متعبة، يكفيكِ ما أنتِ فيه.

أخبرتها أن إيهاب أفاق اليوم، احتضنتني وقبَّلت رأسي.

* * * *

- ٥ -

وصلنا الشاليه، لم يكن هناك أحد عند البوابة، وكانت البوابة مغلقة، بعض عربات شرطة، خفق قلبي، أحسست أن هناك أمر ما!!

طلبت من داليا أن نبتعد فورًا، استدارت داليا بالسيارة وقادت بنا لقلب المدينة، وجدنا كافيه، ركنا وجلسنا لبعض القهوة، جاء بعدنا بعض الشباب، جلسوا بجانبنا، سمعتهم يتكلَّمون عن بقايا بشرية وُجِدَت بالقرب من قرية سياحية هنا بالإسماعيلية، أرسلت رسالة لداليا، هيا بنا من هنا بسرعة.

وصلنا فيلا رندة، أخبرناها بما حدث، لم نكلم إيرين؛ فهي تجهز لزفافها بعد أسبوع. صرخت رندة:

– هنعمل إيه؟

نجلس صامتين، كلٌ في واد! ما الحل؟ لا أعلم ولا أستطيع أن أفكِّر، أنا تائهة.. أنا أريد أن أذهب لإيهاب، ولتقم القيامة بعدها، لا أهتم.

– رندة.. انتِ لسه على تواصل مع فادي؟ سألتها

أُحرجت قليلًا، ثُم قالت:

– نعم!

فتحت الهاتف، اتصلت بشركة السياحة، وجدت رحلة اليوم في التاسعة مساءً، حجزت لها الرحلة، أخبرتهم ألا يخبروا أحدًا أبدًا بسفرها، حتى إيرين وعايدة، خاصة عايدة. أخبرتهم في شكي أنها من تتصل وتبتزنا بمساعدة أحد أبنائها، أكَّدت داليا ذلك الشك:

– شوفتوا بيتها بقا عامل ازاي؟ والسفرة اللي عملتهالنا!

داليا اقترحت أن تسافر مع رندة:

– لن أتركِكِ تسافرين وحدك، يجب أن أكون معك!

وافقت رندة، سافرا معًا في المساء، لم أنم أنا طول الليل، مشتاقة أن يأتي الصباح لأرى إيهاب! ذهبت للمستشفى فجرًا، سألت عن إيهاب، عرفت أن خبر نقله لغرفة خاصة صحيح، أعطوني رقم الغرفة، صعدت للغرفة وأنا أبكي، من شدة بكائي لم يعترضني أحد، دخلت الغرفة، كان هناك ممرضة.. ابتسمت في هدوء، قالت لي:

– البقية في حياتك.

شهقت، كدت أصرخ لولا أني سمعتها تقول "في الوالد" ظنَّت أني زوجته.. لم أنتبه أني كنت ألبس فستانًا أسودًا! قالت لي بعدها:

– حمد الله على سلامة الباشا.

سألتها عن حالته الآن، أخبرتني أن أسأل الطبيب، سيكون هنا بعد نصف ساعة لأول زيارة لليوم! أمسكت بيد إيهاب وقبلتها، كان لا يزال نائمًا بفعل الأدوية، دخل الطبيب، نظر لي، لم يتكلم. سألته:

– كيف حاله يا دكتور؟

نظر لي وأخبرني:

– لا نتكلم عن حالة المريض إلا مع أهله، لقد عرفني!

– أنا أهله. أخبرته: أنا زوجته الثانية، أهله لا يعرفونني.

لا أعلم لماذا صدقني، ولكن تنهد وأخبرني:

– حالته مش حرجة دلوقتي، لكن هياخد وقت تأهيل طويل، ومش هيرجع زي الأول بالكامل، منقدرش من دلوقتي نحدد المشكلة اللي هتفضل معاه، لكن هنحاول بأقصى ما عندنا، دول رجالة البلد، وده حقهم علينا.

كتمت صرخة، تركني وأنا أبكي بقهر! خرجت من المستشفى شاردة، أحس بالضياع، مشوَّشة الذهن، أريد إجابة لسؤال وجودي يلاحقني طوال عمري: "ما كل ذلك السواد الحالك الذي يمر عليّ؟ أتساءل، هل ألبوم حياتي كانت تنقصه صورة لحظة كهذه؟؟"

أود لو ثُرت على أقداري، ولكني أعلم حجمي جيدًا!

* * * *

داليا ورندة ما زالتا في بيروت، إيرين تجهِّز لزفافها.

أنا أعمل وأذهب كل يوم لإيهاب في غير موعد الزيارة!! عرفت الممرضة من أنا فأخبرتني متى أحضُر؛ حتى لا يكون هناك أحد غيري، أنا فقط من حضرت زفاف إيرين، عايدة لم تحضر. كلَّمتها بعدها لأعرف لمَ لمْ تحضر فأخبرتني أن ابنتها مريضة في المستشفى، حاولت أن أنسى شكي بها لأكون بجانبها.

ذهبت، احتضنتني، اعتذرت عن أسلوبها في الفترة السابقة:

- موت عبد الله أفقدني توازني، العيال كل يوم مصيبة، أروح الجامع عشان أفضفض لربنا ألاقيهم بيتكلموا، أسمع منهم، ألاقي كلام يلخبطني، مبقتش عارفة، مين صح ومين غلط؟! لحد ما بنتي قلعت الحجاب من كتر تعسفي معاها!

سألتها عن صحتها:

– مالها؟ سلامتها.

– إجهاض.

زفرت بحرارة وبكسرة قلب تبدو في صوتها، صحت:

– بتقولي إيه؟!

– بقولك إجهاض، بنتي كانت بتحب واحد وفهمها إنه هيتجوزها.

احتضنْتها:

- انتِ كويسة؟!

- هعمل إيه!

تنهَّدت بحرقة وصلتني حرارتها!

– إخواتها حلفوا ليقتلوها، شربت سم من ورايا عشان تموت، دخلت عليها لقيتها بتصرخ، جبتها، لحقوها، وطبعًا أجهضت، كانت لسه في أول شهرين، ربنا نجَّاها!

تتحدث كأنها هي من شربت السم! كلماتها بطيئة، تتحدث باستهتار كمن سيموت بعد قليل، لم يتبقَ له أي شغف في الدنيا! يرسل إشارات نجاة وليست كلمات. تصلها رسائل نصيَّة ولا تردّ!

أخبرتها أن ترد إذا كان أمرًا هامًا، طأطأت رأسها وأخبرتني:

- الشغل.

- ردي واطلبي إجازة.

- أنا بشتغل شغل مفهوش إجازة.

نظرت لها مستفهمة!

- أنا بشتغل مدبرة منزل لناس في الشيخ زايد.. فيلا لناس محترمة؛ باخد بالي من ست كبيرة.. أحميها وأكلها و-عفوًا- أدخلها الحمام. أسليها وأقرألها.

أكملت:

- بس بيدفعولي حلو أوي، صراحة المرتب حاجة، واللي بيدخلي من ولادها وقرايبهم حاجة تانية، ده غير اللحوم والطيور واللبس، حتى العفش، أي حاجة يستغنوا عنها يسألوني لو أعوزها.

احتضنتها بشدة، قبلت يدها ورأسها، أخبرتها كم هي عظيمة، كم هي مضحية، نسيت أن أخبرها كم نحن دنيئون عندما شككنا فيها!

خرجت من عندها والحيرة تقتلني؛ إن لم تكن هي، فمن إذن؟!

* * * *

عادت رندة وداليا من بيروت، لم يكن باستطاعتهما البقاء أكثر من شهر هناك، استقبلتهم في المطار، أوصلت داليا أولًا، ثم ذهبت مع رندة لبيتها..

سألتها:

- حدثيني، ماذا حدث ببيروت؟

- لا شيء، يومنا يتكرر، ننام ونصحوا، نذهب للتسوق، نجلس للعشاء.

سألتها:

- وفادي!

- تواصلنا معه أول يومين، ثُم اختفى.

- اختفى!!

- نعم، لم يعد يرد على اتصالاتي، منعني من الوصول إليه عبر برامج التواصل جميعًا، لم أكن في حال لأطارده! أنا لست طفلة مراهقة! إن لم يكن يريدني معه، فأنا لا يعنيني أن أكون معه! مللت الرجال وغرورهم.

أخبرتها أن تعطيني رقمه، شككت للمرة الأخيرة في أمر ما!

بعد وصولهم بيومين تواصلت الشرطة مع رندة، أخبروها أنهم حاولوا الوصول لها.. منذ أسبوعين وجدوا بقايا الجثة متحللة ويريدونها أن تأتي للقسم للإدلاء ببعض المعلومات.

اتصلت بي وهي مرعوبة، أخبرتها ألا تخبر أحدًا غيري، أكدت عليها أنه في صالحها أن تكون هادئة.

توقعت السيناريو، وأخبرتها:

– اهدئي، لو كان عندهم شك بك لوضعوكِ على قائمة ترقب الوصول ولقبضوا عليكِ في المطار.

نزلت لأتمشى على الكورنيش، امتلأت نفسي بأوجاعي وأوجاع من حولي! أحسست أني أختنق، أردت بعض الهواء المنعش، بعض الأكسجين، بعض الحياة! أسررت لنفسي: هذه الحياة غريبة، نكتشف كل يوم أمرًا جديدًا قد يسعدنا وقد يغضبنا، ما يغضبنا أكثر هذه الأيام، الحياة دروسها موجعة وقاسية، يخبرنا الكبار لأن الحياة تصقلنا فنحتاج أن نصبر. يخبروننا: نحن هنا لنكتشف ونجرب. ما لقيناه لليوم هو أن الأيام تصقلنا لكي تمتحنا الليالي! ما يحدث أن العمر يمنحنا العبر والعظات لكي نتوب عن الطرق الملتوية، ولكننا ما زلنا نتدحرج في منحنياتها نحو السقوط للهاوية! لماذا؟ لا أعلم! لو علمت.. لنجوت ربما! ومع ذلك ما زلت مقتنعة أن الدنيا تعطينا بالتساوي.. أنظر إلى هؤلاء البسطاء الجالسون على الكورنيش سعيدون بأكل بعض الذرة أو الحمص، يضحكون من قلوبهم، ربما لا تحمل جيوبهم ما يكفي للغد، ولا يعرفون كيف سيعيشون غدًا بهذا القليل، ولكنهم لا ينظرون في جيوبهم؛ بل ينظرون في وجوه بعضهم

البعض، يضحكون ويبتسمون! أمشي بينهم أرتدي ماركات، لا ألفت أنظارهم، ربما لأني لا أبتسم، هم لا يفهمون لغتي؛ لغة المظاهر، لغة اللوجوهات والمظاهر الكاذبة.. هؤلاء يلبسون وجوههم كل يوم لا يبدلونها أبدًا، ليسوا مثلنا بهلوانات، كل يوم نبدل ألف وجه لكي نعيش تلك الحياة، هم لا شك يخطؤون لأنهم بشر، لكنهم لا يخونون، لا يتآمرون، ليس عندهم وقت للعداوة والبغضاء، لا يوجد شعب سيقول لك "الحمد لله"، "سيبها على الله"، "اتوكل على الله" غير شعب مصر، شعب مصر واعي وأصيل.. محب لكل ذرة تراب في وطنه، هدفه إسعاد أهل بيته وأصحابه، الجدعنة دينه، يخرج من جيبه للغريب، متتبلعش اللقمة من غير حبايبه! الشعب الذي يصحو على صوت أم كلثوم وهي تشدو "يا صباح الخير ياللي معانا"، ويدندن مع سيد درويش "الحلوة دي قامت تعجن في الفجرية" حتى لو سيذكره درويش "طلع النهار فتاح يا عليم والجيب مفهش ولا مليم"، فيتجاهل تلك المعلومة ويبث روحه المصرية المرحة في قلب أبو صلاح المهموم ويخبره بالحل السحري "اضربها صرمة تعيش مرتاح".. فلنضربها صرمة كلنا إذن.

* * * *

تواصلت مع فادي، عرفت منه أن أحدهم اتصل به وأخبره أن رندة قتلت زوجها، وأن الشرطة وجدت أعضاءه وسيُقبض عليها في المطار. شرحت

له أن كل هذا كذب، وأن عليه أن يتواصل معها ويعتذر عن اختفائه عنها وليجد أي عذر، أخبرته لأن أمره يهمها، واتفقت معه على أن يأتي ليزورها قريبًا؛ فهي تحتاجه بجانبها في هذه الفترة.

كان عيد ميلادها، وكنت أحضر لها حفلة خاصة، حضر فادي، انتظرته في المطار، استضفته عندي، كنت بحاجه لصديق أتكلَّم معه، عرف عن صداقتنا نحن الخمس.. حكيت له كل ما مر بنا؛ ما عدا يوم الإسماعيلية.

سألته عن رحلة داليا ورندة الأخيرة، أخبرني:

- رأيتهما ليومين فقط، ثُم سقطت قنبلة شائعة قتل رندة لزوجها فابتعدت. خلال اليومين كانت رندة سعيدة ومبتهجة، كانت كالطفلة بشعرها المجعد الكيرلي الذهبي، قصر قامتها وصغر حجمها لا يشيان بسنها الحقيقي، إذا أضفنا سحرها الطفولي فنحن أمام فتاه لم تبلغ العشرين بعد.

قاطعته:

- عيد ميلادها غدًا.

اتسعت عيناه وابتسم:

- هو ذلك إذن!

- نعم، أردت أن تكون أنت هديتها مني، استعد لنفاجئها، ولكن عندي خطة لذلك!

صحوت وسؤال يتردد في رأسي، من هو الواشي الخائن! من المبتز الوضيع؟ يكاد رأسي ينفجر من التفكير. قررت أن أنزل لأقرب كافيه، أجدد نشاطي وأعدل مزاجي بفنجان أمريكانو قوي.

* * * *

- ٦ -

حوار بين داليا وزوجها زين.

- حمد الله على السلامة يا ست هانم! كنتِ فين الشهر اللي فات؟

- صبح الصباح يا فتاح يا عليم! من إمتى بنسأل بعض مين فينا راح فين؟ انت نسيت الاتفاق؟

- وأنا زهقت من الاتفاق ده!

ضحكة طويلة ساخرة.

- ليه في إيه جديد؟ تلكيكة جديدة!

- سميها اللي انتِ عايزاه، لكن نقطة ومن أول السطر. العمر بيعدي وعلاقتنا لازم تتحسم.

- احسمها، أنا منتظراك.

- إيه اللي ناقصك في حياتك؟؟ عندك كل حاجة تتمناها أي ست في الدنيا، يبقى أنا اللي مش عاجبك!

- إيه العقل ده كله! أمال فين الأنا اللي بتصرخ قبل أي حوار بيننا، انت فيك إيه النهارده يا زين مالك؟ شارب ع الصبح؟!

صمت طويل، تنهَّد زين وأخبرها:

- كمال سالم اتقتل امبارح في تركيا!

ضربت بيدي على صدري:

- ليه؟ ومين اللي قتله؟

- منعرفش لسه، لكن لازم تعرفي اللي بيعوم مع سمك القرش بيجي يوم ويتقتل.

يقولها وهو يرتجف، وكأن بردًا شديدًا ضرب جسده فجأة! أردف:

- ناس زينا بيكون ليهم أعداء كتير، ويوم ما يتقتلوا بيتفرق دمهم بين القبائل.. ملناش ديَّة!! كمال سليم شريكي منذ خمس عشرة سنة!! كل أسرار الشغل بيننا وبس، أنا مش عارف أفكر، بفكر أصفي شغلي في مصر وأهرب ونرجع أميركا.

- ونرجع؟! من إمتى نون الجمع دي! زين العابدين أيوب من إمتى بيتكلم عننا بالجمع؟! انت افتكرتنا النهارده بس أما مصيبة حلِّت!

طأطأ رأسه وأكمل:

- يمكن أكون ظلمتك بإهمالي، لكن أنا بحبك يا داليا، انتِ حب حياتي، نسيتي!

- لا منستش يا زين! أنسى ازاي، أنسى إني مكملتش طب عشانك، أنسى إني عشت في الغربة بعيد عن أهلي وعيلتي ومستوايا الاجتماعي عشانك وعشان كنت بحبك.. أنسى؟ أنسى ازاي!

- طيب خلاص ننسى سوا كل حاجة ونبيع كل حاجة هنا ونرجع جنب ولادنا.

- مش هيحصل، أنا عايزة أتطلق!

- طلاق! ليه؟ وليه دلوقتي؟!

- لأن من زمان وحياتنا كانت شبه مستحيلة، ووصلنا لاتفاق نعيش مع بعض كده بدون عواطف عشان نبقى على واجهتنا الاجتماعية. دلوقتي عناصر حياتنا اتغيرت، هجرة عكسية وقتل محتمل وحياة مربوكة جاية! ليه أنا أعيشها معاك تاني؟ انتِ مش بتحتاجني إلا وانت في مشاكل أو مصايب، مش بتفتكرني إلا لما تقع!

- هسيبك تفكري ونتكلم تاني.

قالها وهو يتحرك ناحية باب الغرفة، تاركًا إياي في حيرتي مع القنبلة التي ألقاها منذ قليل.

* * * *

إيرين

وصلت القاهرة عائدة من شهر العسل، زوجي شغل قلبي منذ رأيته، والآن امتلكه عن آخره، لم يدخل قلبي أحد غيره بهذه السرعة وبهذه القوة، غريبة الدنيا، عندما يئست أن أجد لنفسي زوجًا رمَت في حجري هذا الزوج الحنون الطيب، سننتقل إلى فيلا موريس خلال هذا الأسبوع، ما زلنا في بيت والدتي منذ عدنا من أسبوع، والدتي لا تبدو سعيدة، واضح أنها تشعر أنها سوف تترك بيتها هذا وتذهب معي إلى القاهرة الجديدة، هذه هي الحياة يا أمي، فلنكن مرنين معها لكي لا تغضب مرة أخرى.

* * * *

أرسلت للجميع رسائل نصية بأن عيد ميلاد رندة اليوم سيكون مميز، أحضروا هدايا جيدة، تعرفون عنوان المكان، لا تتأخروا ولا تخبروها بأي شيء؛ أريدها مفاجأة. كنت قد حجزت لنا مكانًا مميزًا في لاونج مشهور، طلبت ثلاث وجبات منها الاستيك الذي تعشقه رندة، حجزت عازف كمان وديكور مميز، فادي سيأتي بالتورتة على أنه عامل دليفري من المحل المخصوص الذي تحبه رندة.

ذهبت قبلهم لأتأكد من أن كل شيء معد كما طلبت! راجعت الوجبات بالترتيب وموعد عازف الكمان وكل التفاصيل الأخرى، ثُم ذهبت لأحضر رندة، ليس عندها فكرة عن الحفل. هي تستحق هذا الاحتفال، ستنهي حياة

أليمة وتبدأ حياة جديدة، أنهت خمسين عامًا من التعب والتضحيات، وجاء أوان حصاد ثمار هذا كله.

انتابها الشك عندما دخلت للمطعم ورأت بالونات مكتوب عليها اسمها تستقبلها، الطاولة معدة بشياكة، الأطباق والزهور، كل ذلك استدعى حضنًا كبيرًا منها لي وأخبرتني وهي تقبل خدي:

– أنا عارفة انتِ أكيد اللي عملتي ده كله.

شاوروا جميعًا عليّ، فاتخذت وضع صورة سلفي في وسطهم، ضحكنا من جديد، كنا قد نسينا ذلك النوع من الضحك الذي يخرج من القلب، أسهم محبة، تتلاقى بقلب كبير في النهاية. جلسنا وأنهينا أطباقنا الاثنتين بانتظار التورتة، يدخل علينا عامل بالتورتة المتفق عليها يضعها أمامنا بدون أن نرى وجهه، نجح فادي في ذلك بدرجة مائة بالمائة، وبعدما انتهى من ترتيب التورتة ووضعها خارج غلافها، رفع رأسه وقال:

– كل سنة وانتِ طيبة يا رندة.

نظرت فرأت فادي، شهقت، وقامت واحتضنته:

– انت جيت إمتى وعرفت ازاي؟

نظرت لي وقفزت مثل الأطفال واحتضنتني:

– انتِ ازاي كده يا هند! ازاي كل همك احنا واللي بنحبه؟ أنا بحبك أوي يا هند.

نظر فادي للجميع وأشار عليّ، وأخبرهم:

– خلوا بالكم منها مفيش منها كتير هاي منها مفيش منها كتير هاي.

الجميع يتبادلون الضحك والكلمات ما عدا داليا، أرسلت لها رسالة،

– مالك؟

– مفيش، مشكلة مع زين.

اضطررت أن أصدقها، وإن كنت أشك أن هذا هو السبب الوحيد!! جاء بعدها عازف الكمان، نظرت داليا لي بغضب، لملمت حقيبتها وشالها وقامت غاضبة.

– باي يا جماعة، جالي مكالمة مهمة، لازم أروَّح.

ولم تنظر إلينا!

* * * *

حياتي انقلبت رأسًا على عقب بعد حادث إيهاب، أصبحت أصحو مبكرًا، أستمع لأم كلثوم وهي تبشرنا بأن البدرية ساعة هنية! حولت مواعيد عملي كلها لفترة الضهر والعصر، لكني أشعر بأعراض غريبة تصيبني الآن، دورتي الشهرية لم تكن منتظمة منذ سنتين تقريبًا، لا أعير لذلك اهتمامًا، أرجعه للتوتر العصبي الدائم الذي أعيشه مثلي مثل كل الناس، فلماذا

أشتكي أنا؟ لكن الشهران الماضيان هناك أعراض أشك أنها أعراض سن اليأس الجميل، قررت أن أهتم بنفسي قليلًا! ذهبت لبعض الفحوصات.

* * * *

عايدة ورانيا..

- وبعدين يا رانيا هتفضلي كده في سريرك يا بنتي! خلاص انسي اللي حصل، نصيبنا كده. ارجعي للجامعة الامتحانات قربت، وكمان آدي رمضان قرب وأيام مبروكة، ادعي ربنا يغفرلك.

- مش قادرة يا ماما مش هقدر أرجع الجامعة، بفكَّر أريح الترم ده وأحول السنة الجاية أي جامعة تانية، مش هقدر أروح المكان اللي هو فيه.

- اللي تشوفيه يا بنتي، أنا مفيش بإيدي غير إني أساندك، وانتِ قرري اللي عايزاه.

بعد انسحاب أعراض التغيير الهرموني الذي أصابني أصبحت أقل عصبية وأقل قلقًا وأكثر هدوءًا ومرونة، لو حدث لرانيا ما حدث منذ عام كنت قتلتها تقريبًا، لا يفهم من حولنا تأثير تغييراتنا النفسية مع وجود أعراض سن اليأس، تعودوا علينا مقاتلين نقاتل كل شيء لنكون حاضرين لخدمتهم، مشقة وعذاب التغيير الهرموني أصعب من فترات الحمل والعذر الشهري، أعراضها مختلفة، نحن لا نعرفها إلا بالتجربة، وهم لا يعرفونها أبدًا، يصفوننا أننا قد جننا أو الربع الباقي اتحرق، وفقط "اعمليلك كوب من

الليموناضة عشان تهدي!" حتى أنهم لا يفكرون أن يحضروه لنا بأنفسهم، يطلبون منا خدمة أنفسنا؟! في كثير من الأوقات نندم على ما قدمناه ولم نجد أمامه أي رد للجميل، ولكن نتذكر في النهاية إن فيه ربنا.

* * * *

داليا وزين..

- أنا لسه منتظر ردك يا داليا، لازم نتحرك بسرعة، أنا عرضت الشركة والفيلا للبيع، هتيجي معايا أميركا ولا لأ؟!

صحت:

- الفيلا لأ دي بيتي، ازاي تعرضه للبيع من غير ما تقولي؟!
- ناخد حاجة أصغر يا داليا، خلاص مفيش وقت، لازم نبيعها، ويا ستي اشتري حاجة صغيرة في الرحاب ولا مدينتي.
- تتكتب باسمي!
- موافق، هتيجي معايا؟
- سيبني أفكر!

أفكِّر في سري. لم أكن جاهزة لأن تضيف لي الست هند مفاجأة علاقة رندة وفادي! منذ رأيت فادي يقبِّل رندة وأنا سأجن؛ لقد وقعت في حبه من أول نظرة، تمنيته لنفسي، حلمت أني تطلقت من زين ثم ذهبت إليه أركض ثم

أرتمي في حضنه، فيأخذني بقوة ويخبرني "اشتقت لك، أين كنت؟!" أحلام فتاة في التاسعة والأربعين من عمرها بقي لها شهر لتصبح في الخمسين، لو سمع الناس ما بداخلي لرجموني بالحجارة، أو وصفوني بالجنون، ولحجر عليّ أولادي! أنا ما زلت من داخلي أشعر أني ابنة العشرين ربيعًا تنتظر أن ترسل لها الدنيا بحبيب القلب، ولكني حصلت عليه مرة، هل سأحصل عليه مرة أخرى؟ جنون، أعلم أنه ضرب من الجنون، يخبرني زين دائمًا أنها هرمونات، كلما علا صوتي وانهرت باكية ينظر لي ويسألني "هرمونات صح؟!" لو كانت الهرمونات رجلًا لقتلتها!

* * * *

- ٧ -

عادت رسائل التهديد، هذه المرة لا يوجد ابتزاز؛ تهديد فقط، "أعلم ما فعلتم، وسأسلمكم للشرطة واحدة تلو الأخرى". مجهول.

صورة مرفقة لنا ونحن نقذف وليد في الماء، صرخت ورميت بالهاتف!

تليفون من إيرين تبكي وتصرخ:

- الحقيني يا هند.. ماما يا هند، ماما.
- انتِ فين؟
- احنا لسه في شبرا.

أغلقت الهاتف وأسرعت لها، لا أعلم كيف وصلت لها في هذا الزحام! ما هذا اليوم الغامض؟ رسائل تهديد صريحة، وطنط سامية لا أعلم ما بها! صعدت بسرعة، قلبي يخفق بشدة، توقفت لأتنفس، قابلني موريس يصعد

ومعه قسيس كنيستهم، تعدوني، تسمرت مكاني، قفزت السلالم الباقية، دخلت، إيرين جالسة في الصالة تبكي، تلبس الأسود، احتضنتها.

- أنا اللي موتها يا هند، هي مكنتش عايزة تسيب بيتها، روحها فيه يا هند، أنا السبب.

- اهدي يا إيرين دي أقدار ربنا والموت علينا حق يا بنتي، مش عايزة أقولك ارتاحت تزعلي، بس هي ارتاحت يا حبيبتي، طنط تعبت أوي، خصوصًا الفترة اللي فاتت.

نظرت لي وسألتني:

- شوفتي الرسالة؟

تنهدت وقُلت:

- أيوة، كأننا كنا ناقصين المجهول ده كمان.

تواصلت مع الجميع، الكل مرعوب مما سيحدث، ولكن الآن كلنا يجب أن نكون مع إيرين، ثُم بعدها نتفق لنرى كيف سنحل تلك المصيبة! الموضوع ليس شخصًا طامعًا في بعض المال، الآن هو يريد أن يزج بنا في السجن، الآن همنا الوحيد هي إيرين.

استأذنت أدخل على طنط سامية بعد خروج القسيس، مسجاة على سريرها، مغطاة بغطاء أبيض، شمعتان تنيران بجانبها، أختها الصغرى جاءت من المنيا في الفجر عندما علمت بأنها تحتضر. تجلس تقرأ لها

أسفارًا معينة، هناك سيدة تقف جانبًا تحضر البرنس وغطاء الرأس، أرى الجورب الأبيض الذي ستلبسه أيضًا!

انتفض جسدي، الموت شرير يخطف منا أحبابنا، يدخل بدون استئذان، لكن الطيبين لا يخشونه، إيمانهم يدعمهم، يخبرهم لا تخافوا، أنتم بأمان، كلمتها بأسى وحب:

– كنت خير أم وخير سيدة رأيتها، أديتي ما عليكِ بحب وسلام.. سلمتي الأمانة لابنة صالحة طيبة، لترقد روحك بسلام، هتوحشينا.

فرَّت من عيني دمعة دافئة، قبلت جبينها وخرجت، جاءت البنات كلهن، جلسن مع إيرين حتى آخر اليوم، لم نستطع إلا أن نذكر رسالة التهديد!

– من السافل الذي وراء هذا وكيف تم التصوير؟ تتساءل رندة.

داليا صامتة يظهر عليها القلق الشديد! عايدة أكثرنا هدوءًا، فلم تكن معنا في الصورة، إلا أنها وصلها تهديد مثلنا! يجب أن نلجأ إلى متخصص ليسبر غور هذه القضية، لكن من سنستأمن لنعرفه سرنا؟! مر بخاطري طيف عم جلال؛ مصور صحفي سابق بمجلة الإذاعة والتلفزيون، سألت عنه، عرفت أنه يعيش الآن بالإسكندرية، لا أحب الإسكندرية في الشتاء.. نوباتها تذكرني بنوبات جنون الحياة وتقلبها علينا فجأة. تتوقعها نعم، ولكن كل مرة تأتي على حين غرة!

جاءت معي رندة للإسكندرية، وصلنا إلى بيت عم جلال، بيت متواضع بسيط، فيه رائحة التعب والكد الذي عاشه، تسكنه روح الرضا وعزة النفس، يزينه صور ممثلين وممثلات بالأبيض والأسود، عندما عرف أننا قادمون لزيارته، جهز لنا "أكلة سمك شبار ترم العضم" كما أخبرنا وهو يضع لنا الطعام، "معلش الحاجة هنا أكل عزابية بقى أمركم لله"، يضحك بابتسامة واسعة تسفر عن أسنان أهلكتها السنون، والتدخين أيضًا، شكرناه من كل قلبنا.

– الأكل رائع، حضرتك أشطر مننا. أخبرته

عاد وابتسم ابتسامته الدافئة، تغدينا ثم أريناه الصورة، الصورة كانت قبل أن نلقي وليد في الماء، فلن يفهمها عم جلال وهو رجل كبير ولن يهتم بقصتها، سألته:

– إيه رأيك في الصورة دي؟

أجابني:

– صورة توماتيكي.

لم نفهم، نظرنا له مستفهمين!

– يعني مش بني آدم اللي مصورها، دي توماتيكي بالتايمر.

شدني شرحه، أحس بالثقة في صوته، هو يعرف ما يقول، نظر إلينا:

– ميغركوش إني كبير واشتغلت بكاميرات قديمة.

أشار لنا أن ندخل معه البلكون، أشار إلى استوديو صغير في البناية المقابلة:

– شايفين ده؟ أهو ده استوديو بتاع ابني، خد مني الصنعة، بس هو بيشتغل بالجديد، اتعلمت منه كتير وبساعده شوية كل ما صحتي تساعدني، الصورة عايزة تطبع، أنا شاكك إن ملعوب فيها بس مش قادر أوضح، انزلوا لحمدي تحت وأنا هقوله يساعدكم، هو هيجبلكم مصارينها.

نظرت لرندة، أجابتني برأسها موافقة، وكأنها تقول ماذا بيدنا؟!

وصلنا الاستوديو، حمدي في سننا تقريبًا! شخص مهذب ابن بلد، لكن يبدو عليه الحنكة في مهنته، وأيضًا في تفرس وجوه من يقابلهم. شعرت أنه يراقبنا ونحن نشرح له أن هذه صورة لرحلة كنا فيها، لكن نظن أنه تم التلاعب فيها ونريد أن نعرف السبب!!

لم يخل عليه كلامنا! طبع لنا الصورة، أخذ يتفرس في تفاصيلها.

حمدي:

– الصورة دي متاخدة من كاميرا جديدة أوي مفيش منها لسه في مصر غير عدد محدود بيجي بالطلب من بره! متاخدة بتايمر، واضحة والكواليتي عالية جدًّا، لكن مش متاخدة من قريب، يعني نقدر نقول مثلًا خمسمائة إلى ستمائة متر، بالكتير واحد كيلو متر.

أكمل تحليله للصورة:

– بس ملعوب فيها أكيد، وده شوش شوية ع الكواليتي في مناطق معينة، تقدري تشوفي هنا.

أشار إلى مكان وقوف داليا خلف الكرسي؛ فهي من كانت تدفعه، وكنت أنا على اليمين بعيدًا قليلًا، وكانت إيرين على اليسار أيضًا بعيدًا قليلًا، كنا نحن الثلاثة فقط في الصورة، وضع الصورة على جهاز وكبرها لنا، وأشار إلى المكان الذي يظن أنه تم فيه التلاعب:

– شايفين اللي بتزق الراجل المريض ده؟

شهقت رندة، قرصتها في يدها أن تسكت، فما رأيناه لا يصدقه عقل!

– أيوة معاك.

نظر إلى رندة، ثُم سألها:

– اتخضيتي ليه يا مدام؟!

ردت:

– أنا! لا أبدًا، وصلتني رسالة ع الموبايل إن ابني عمل حادثة، أستأذنك أشوف في إيه!

خرجنا..

رندة:

– أنا مش مصدقة!

رجوتها أن تهدأ:

– هندخل نقول الحمد لله حادثة بسيطة هو بخير بس العربية اتعجنت شوية.

أكمل كلامه:

– اللي واقفة دي واضح جدًّا إن حصل لعب بالفوتوشوب، ده كل اللي أقدر أفيدكم بيه.

شكرناه، وقبل أن نخرج سألنا:

– الراجل اللي ع الكرسي ده كان ميت صح!

بلعنا ريقنا، أخبرته بسرعة:

– اتوفى تاني يوم، كان طالب مننا نجيبه يشوف البحر آخر مرة.

بلعها وقال:

– البقاء لله، الله يرحمه ويرحمنا، وينجيكِ يا مدام.

كلماته تنوه عن نفسها، هو متأكد مما رأى، نحن الآن في وضع لا نُحسد عليه.

* * * *

داليا وزين..

– أنا اتفقت على فيلا في مدينتي عايزاك تحولي الفلوس عشان أخلص الإجراءات خلال الأسبوع الجاي.

– أما أبيع دي واستلم فلوسها، أجلي الدفع شوية، أنا هقبض مقدم ممكن أديلك تدفعي انتِ كمان مقدم ربط كلام وإظهار جدية للبائع.

– طيب هكلمهم ونشوف، بس أنا مش هضيعها عشان عجباني أوي.

– فكرتي في السفر معايا؟

– فكرت وموافقة، بس قدامي حاجة مهمة في مصر أخلصها وأحصلك.

– شوفي اللي وراكِ المهم تحصليني! الولاد محتاجين لينا احنا الاتنين.

ضحكت بسخرية:

– الأولاااد! هههه لا بجد فاجئتني، هو انت تعرف إن ليك أولاد ولا أحفاد؟ طيب قولي أحفادك أساميهم إيه كده وعندهم كام سنة؟

– كفاية يا داليا أنا مش ناقص.

– طيب حاضر يا أستاذ مش ناقص، سيبناك في حالك.

هممت واقفة، أعدت عليه طلبي:

– متنسساش، يومين والفلوس تكون عندي.

نظرت لهاتفي، أربع رسائل تؤكد عليّ لقاء استثنائي اليوم في فيلا رندة الساعة السابعة مساء، ذهبت في الموعد المحدد، واضح أنهم سبقوني، فناجين شاي فارغة، يجلسون في مكتب وليد، أغلقت رندة الباب بالمفتاح بعد ما أدخلتني، أسدلت الستائر وفتحت الأنوار عالية! أشعر أن هناك شيء غامض على وشك أن يُرفع عنه الستار.

بدأت هند:

– افتحوا كلكم الصور اللي وصلتكم وحاولوا تكبروها، شايفين إيه؟!

صرخت عايدة:

– أنا فيها بعمل إيه! أنا مكنتش معاكم.

أجابتها رندة:

– بالظبط!

نظروا لي جميعًا بعيون مستفهمة ووجوه غاضبة! قالت هند:

– مين ليه مصلحة يشيل صورته ويحط صورة حد مكانه يا داليا؟

ارتبكتْ، أجبتها:

– لا أعلم! مش أنا والله ما أنا، أنا حتى ما أخدتش بالي! أنا شوفت زيكم الصورة ورميت الموبايل خفت واترعبت.

- تمام هنصدقكم أكيد كلامك صح وتقدري تحلفي، ما هو انتِ مش خبيرة فوتوشوب، وأكيد حد هو اللي عملهالك. ردَّت إيرين
- لا مش أنا، وربنا مش أنا.
- عرفنا مش انتِ.

اقتربت مني هند وهي في وضع المحقق، اقتربت من أنفاسي وسألتني:

- لو انت بريئة من تزوير الصورة، هتنكري إن انتِ اللي صورتيها؟!

نكست رأسي، لا يوجد مفر من الاعتراف بهذا الجزء!

- أيوة أنا اللي ظبطت التايمر وصورتها، مش عشان أئذيكم، عشان بس أحمي نفسي لو اتكشفنا لأي سبب مش أكتر! انتو عارفين إني بمر بنوبات تعب وتوتر الفترة دي، ويومها كنت مرعوبة، بس كان لازم أساعدكم! صدقوني، سموه هبل أو عبط، لكن أنا مش خاينة، مقدرش، انتو اخواتي مش هأذيكم ومش هأذي نفسي، ما هو لو انتو انكشفتم أنا كمان هنكشف.

استمريت في الدفاع عن نفسي:

- أنا زيي زيكم وصلني رسايل تهديد وابتزاز!
- كاموفلاج، تمويه! ردَّت هند.
- لا مش أنا.

اقتربت مني هند مرة أخرى، سألتني:

– أمال مين اللي معاه الصورة غيرك؟! وأنا سألت وعرفت إن الكاميرا دي جديدة ومن بره، يعني الصور بتاعة كاميرتك مش حد تاني.

– معرفش، والله ما أعرف ممكن مين اللي لقاها أخدها ولعب فيها!

الصمت احتل المكان لعدة دقائق، أخذت منهم الصورة المطبوعة، نظرت فيها جيدًا، من وضع صورة عايدة بدلًا من صورتي، من أين أتى بصورتها؟!

– ما هذه الصورة يا عايدة؟ أين كانت؟ هل تتذكرين أين أخذت لك؟

عايدة لا تتذكر، نظرات حيرة متبادلة بيننا، مَن يا ترى هذا الشخص! هل سينفذ تهديده؟! أعلم أن القلق سيقتلنا قبل أن يصلوا إلينا.

عدنا لبيوتنا، ليس بأيدينا أي حل الآن.. يجب أن نرتاح لكي نستعيد قدراتنا الذهنية.

* * * *

- ٨ -

ذهبت لإيهاب في الصباح كالعادة، لم أجده في الغرفة، انتظرت، جاءتني سوسن الممرضة، أخبرتني أنه تم السماح له بالعودة لمنزله، خبطت على رأسي، أسر لنفسي، كأن المصائب عندما تنزل، تنزل دفعة واحدة!! شكرتها وانصرفت.

تائهة أمشي في طريقي، ما زال الوقت مبكرًا لكي أذهب للعمل، ما زال هناك ساعتين، قررت أن أجلس في كافيه قريب، أفكر بما يدور حولي، هل هذه هي نهاية علاقتي بإيهاب؟ هل أصبح غير قادر على أن يأخذ قرارات؟ زوجته ستكون من يأخذ له قراراته من الآن وصاعدًا، ستصبح هي المتحكمة في حياته وحياتي! سأحاول أن أفكر بهدوء، لا يوجد لي حل آخر غير الوقت! الآن يجب أن نفكر في تهديدات المجهول، من له مصلحة في تخويفنا؟! من الذي يهددنا؟ لماذا بدأ بابتزازنا، ثم تحول فجأة للتهديد

بالانتقام! عايدة لم تكن معنا، رندة لم تكن في القرية وقتها، أنا وإيرين لن نفعل ذلك، داليا التقطت الصورة لتحمي نفسها، ولكنها أقسمت أنها ليست من غير ملامحها، وأقسمت أنها ليست من يهددنا، كلامها مقنع، فإذا فضحتنا سنفضحها. من الذي وصل للصورة التي تحتفظ بها داليا؟ زوجها؟! زين بالكاد يكون في بيته، لماذا سيهتم بأن يفتح هاتفها ويستخدم الصورة ضدنا؟ ما الدافع؟! لا يوجد أي دافع، فضلًا عن أنه لا يعرف أي شيء عن الموضوع، الوحيد الذي لديه سبب لتهديدنا هي رندة، ربما أرادت أن ترهبنا لنبقى خائفين، فلا نفكر أن نبلغ عنها في يوم من الأيام؟! هي ليست في الصورة إطلاقًا، خرجت وقت قيامنا برميه في الماء.

ذهبت لبيروت مع داليا، سهل جدًّا أن تكون اكتشفت موضوع الصورة وظنت أن داليا تحتفظ بها لتهديدها، لكن لماذا بدلت صورة داليا بعايدة؟! رأسي سينفجر، إحساس أني أدور في دائرة مفرغة يجعلني أشعر بصداع رهيب. لقاءنا الأسبوعي في بيت رندة. ذهبنا مضطرين، لا يوجد منا من عنده أي رغبة في رؤية أحد، كل منا مهموم بمشاكله، بالإضافة لموضوع التهديد الذي جدَّ علينا!

وصلت مبكرًا عن الموعد، فتحت لي الخادمة الجديدة، دخلت، شعرت بوجود عطر رجالي في المكان، أعرف هذا العطر جيدًا؛ يستخدمه إيهاب

كثيرًا، عطر اشتريته له من بيروت منذ عام ونصف تقريبًا، ليس عطرًا مشهورًا، ولكني أعرفه بالطبع.

صدق حدسي، فادي هنا، مددت يدي وحييته، قبل يدي، أخبرني أني أوحشته! "تلزيق أوفر!" أسررت لنفسي.

أسررت لرندة:

– مقولتيش إنه هنا ليه؟!

أخبرتني أنه وصل الفجر فجأة بدون موعد مسبق، عنده شغل في مصر، هيفتح مطعم في شرم الشيخ مع ناس مصريين.

استأذن فادي:

– أسيبكم تقضوا اليوم مع بعض، عندي شوية مواعيد.

غمزني بعينه ومضى! سألت رندة:

– ماله فادي! عمال يغمزلي.

ضحكت:

– متاخديش في بالك، هو كده فرنساوي خالص، مجامل مش أكتر.

– هتتجوزوا إمتى؟

أجابتني:

– لسه شوية أما يستقر على حال، هنا ولا هناك لسه مش عارفين!

– وبينكم علاقة؟

نظرت باستحياء، وأشارت بنعم.

– طيب خدي بالك من نفسك، وحاولوا تتجوزوا، احنا شرقيين في النهاية وسمعتنا أول حاجة! الخدامة دي تعرف إنه مين؟

– أخويا؛ عشان بتتكلم زي بعض، أقنعتها إننا إخوات، وهي مش بتقعد بالليل، بتروَّح.

تجمَّعنا كلنا، تبادلنا الأخبار والحكايات والضحكات التي نحتاجها كوقود لأسبوع قادم! في المساء قبل أن أنام، وجدت رسالة من فادي، ما زال يحتفظ برقمي! أخبرني أنه يريد أن يمر ليأخذ حقيبته التي تركها عندي المرة الماضية! أي حقيبة التي عندي؟! لماذا لا أعرف أنه ترك عندي حقيبة؟ دخلت أبحث عن تلك الحقيبة، لم أجد شيئًا، وصل فادي، دخل وقبلني في خدي! سألته مستهجنة:

– إيه حكايتك يا فادي؟ كل ما تشوفني تغازلني؟

– فيها إيه أما أشوفك بحييكِ مش أكتر!! جنتلمان شايف قدامه مدام وزي القمر، صعب إنه ميجاملهاش.

– شكرًا يا سيدي. قولتلي إن فيه شنطة ليك عندي!

– عشان أزورك، إيه المشكلة؟ مجرد سبب.

اقترب مني، وضع يده على خصري، اقترب من أنفاسي، وقبَّلني. لا أعلم لماذا لم أقاومه، رغم تحذيري له منذ دقائق!! هربت من الحضن، سألته:

– هل أنت مخمور؟

أجابني:

– شوية، بس أنا واعي وعارف إنك عجباني.

اقترب مني مرة أخرى، حاولت أن أهرب من قبضته، لم أستطع! للحظة، أحسست أني امرأة مرغوبة! فكرت في إيهاب وأننا انتهينا معًا، زواجنا العرفي انتهى للأبد، أعطيت لنفسي عذرًا أن أنساه اليوم وانصاع لفادي! شعرت مع فادي أني امرأة من جديد.

– أنا مجنونة.

صحت في الصباح وهو نائم بجانبي، ضحك بمكر وسألني:

– ليه؟

– ليه إيه؟ أنا بخون صاحبتي.

– تخونيها ازاي؟ هو أنا جوزها!

– مش جوزها، بس حبيبها.

ضحك بلؤم شديد أراه يقفز من عينيه!

– انت مش ناوي تتجوزها؟

– لا طبعًا، أتجوزها ازاي! دي مجنونة وممكن تقتلني زي ما قتلت جوزها.

شهقت:

– أخبرتك من قبل أن هذا كذب.

التفت إليّ، نظر في عيني، اقترب مني وقبلني، حتى نسيت فيما كنا نتكلم، رسائل متلاحقة تصل إلى هاتفي، يا إلهي! إنها رندة، تخبرني أن فادي مختفي عنها، وهي قلقة.

– عاجبك كده! أهي بتدور عليك.

قبَّلني، أخبرني هل أريده أن يصنع لي شايًا معه. أشرت له "نعم".

– أقولها إيه؟

– قوليلها كان معايا. أجاب بخبث

قذفته بالوسادة، قبلها وأعادها لي، فادي ساحر، لا يمكن أن يكون إلا ساحرًا! هل نومني مغناطيسيًّا؟! بدأت أشك في إمكانية ذلك.

اتصل فادي بعدها برندة وأخبرها أنه اضطر للسفر لشرم لبعض تعديلات في العقود وسيعود بعد يومين قضاهم في بيتي أشعل رغبتي للحياة، أعاد لي ثقتي بنفسي. كنت قد كتبت استقالتي، كنت سأقدمها فور أن أعود من إجازتي السنوية التي قضيتها لأول مرة في بيتي، حتى جاء فادي فأعادني

للحياة مرة أخرى! قرر فادي أن يستقر في مصر الفترة القادمة. كان بين شرم الشيخ وبيني، لا تعرف رندة عن ذلك أي شيء، طلبت منه أن تذهب معه لشرم بما أنه يغيب هناك كثيرًا، ولكنه رفض وأخبرها أن الوضع لا يسمح. أخبرني أنه ينسحب منها بالبطيء، لا يريد أن يفعل مشكلة فتقتله هو أيضًا كما قتلت زوجها. حاولت أن أثنيه عن تفكيره هذا! أخبرته أكثر من مرة أنها لم تقتله، حتى جاء اليوم الذي كان قد احتسى كثيرًا من الشراب في لقاء مع أصحابه ثُم جاء لي مخمورًا. أخذ يهلوس بالكلام:

- كلمتني، قالتلي هقتلك زي ما قتلته.
- هي مين يا فادي؟
- رندة صاحبتك، هتقتلني.
- قولتلك مية مرة إنها مقتلتهوش.
- قتلته، حطتله السم في الأكل لمدة أسبوع، بعدين زقته عشان يبان أنه مات من الوقعة، قتلته، هي اعترفتلي، قالتلي إنها بتحبني وكان لازم يموت.

تسمرت مكاني، تجمدت أطرافي، لا أصدق كلامه، تخاريف مخمور. في الصباح، واجهته بما قال. صمت قليلًا، ثُم أكد لي أنه كان مخمورًا، ولكن كلامه كان صحيحًا.

ضربت على رأسي وصرخت، وأخذت أضرب بيدي كل ما يصادفني، أخذت أكسر في كل ما حولي، أمسكني بقوة، حملني للغرفة، أغلق الباب، سألني:

– ليه ده كله؟

لم أستطع أن أخبره بأي شيء!! سألته وأنا أصرخ:

– اعترفتلك بإيه تاني؟

– مفيش، هتعترف بإيه أكتر من كده؟!

– وحياة أغلى حاجة عندك يا فادي اعترفتلك بإيه تاني قولي؟

صمت قليلًا، أخبرني بكل شيء:

– اعترفت إنها ورطتكم كلكم معاها عشان تقنعكم إنه مات فجأة بالخطأ، قالتلي إنكم فكرتوا في خطة ونفذتوها، ورتني صورة.

صرخت:

– الفاسقة، الفاسقة. هي اللي سرقت الصورة! هي اللي بتهددنا، بس دي ابتزتنا وأخدت مننا فلوس.

نظر لي فادي مستفهمًا:

– مش فاهم!!

حكيت له..

- هي استلفت مني كمان مبلغ كبير بعد وفاة جوزها، فهمتني إنها معهاش فلوس لأن الحسابات باسم جوزها، وإنها هتتصرف في المبلغ؛ لأني بصراحة طلبت إنها ترجعه في أقرب وقت.

- ورجعته؟

- لا مرجعتهوش!

سألته:

- هي اعترفتلك إمتى؟؟

- قريب، قبل ما اجي أبات عندك بيوم.

- بس أنا أما كلمتك وانت في بيروت قولتلي إنك عرفت إنها قتلت جوزها.

- أيوة مظبوط، واحدة كلمتني وقالتلي أبعد عنها، لأنها قتلت جوزها، وانتِ قولتيلي بعدها إن ده مش صح، وصدقتك لحد ما هي اعترفت.

- أكيد داليا هي اللي كلمتك تحذرك منها. عشان كده انت هربان منها وخايف.

- طبعًا خايف، دي معتوهة!

- طيب هنعمل إيه دلوقتي؟!

- لازم تلاقوا حل، لأنها هتوصل لمرحلة ممكن تسلمكم كلكم وتنهي سمعتكم؟

- لا مش خايفة من ده، ساعتها كلنا هنعترف عليها، وأكيد انت هتشهد معانا، الفكرة في الانتقام، إنها تأذينا، وده هيكون قريب لو عرفت إنك ناوي تسيبها، أو تعرف إن أنا وانت على علاقة ببعض! أنا وانت أكتر اتنين لازم نخلي بالنا من بعض.

اقترب مني، حضنني بشدة، أخبرني:

- متخافيش، هنلاقي حل، ضروري.

تواصلت مع الجميع، أخبرتهم:

- اجتماع استثنائي عندي حالًا، رندة ممنوع تعرف نهائي.

أكدت عليهم ذلك أكثر من مرة، حضروا جميعًا بعدها بساعتين. حضَّرت لهم أنا وفادي غداءً سريعًا، تغدينا جميعًا معًا، لفت نظرهم وجود فادي، لم يعلقوا! بدأ فادي الكلام:

- أنا عارف انتوا بتقولوا فادي بيعمل إيه هنا، أنا هنا عشان أقولكم خبر مش كويس، عايزكم تمسكوا أعصابكم، هند حاولت إنها هي اللي تتكلم؛ بس هند أخذت الصدمة ومش قادرة تتكلم في الموضوع، رندة كانت بتقتل وليد بالسم لمدة أسبوع، وخططت موضوع القتل الخطأ عشان تورطكم معاها.

صرخات، عويلن انتحاب، نواح؛ هذا ما امتلأت به شقتي. عايدة تلطم على وجهها، إيرين انهارت واضطررنا لرفعها ووضعها في غرفتي، داليا صامتة لا يوجد أي انفعال أو رد فعل، كأنها كانت متوقعة ذلك. التفتت داليا لفادي:

- أنا اللي كلمتك وحذرتك منها، تفتكر دي مفاجأة لأي حد فينا! هي قتلته فعلًا. لكن كلنا فاكرين إنه بالخطأ زي ما هي فهمتنا! الحاجة الوحيدة اللي احنا مش قادرين نستوعبها إننا ضحينا بكل حاجة عشان صاحبة عمرنا، في الوقت اللي هي كانت قاصدة تأذينا!! هي دي المشكلة ؟؟ ليه ده حصل! إيه اللي يخلي صداقة أربعين سنة تنتهي بخيانة زي دي؟! هل احنا أذيناها فبترد لينا الأذى؟!

التفت فادي لها، اقترب منها قليلًا:

- داليا، انت مصممة إن انتو السبب؟ انتِ لسه بتعملي ليها حساب؟! لسه ليها رصيد عندكم؟! لا اسمحيلي، ده كتير! السبب اللي هي قالته إنها حبتني وكرهته وبس! قتلته عشان تورثه، ضحكت عليكم وضحت بيكم وورطتكم عشان ما تبلغوش عنها، هددتكم عشان تفضلوا خايفين ومرعوبين، انتو اديتوها حب وهي اديتكم خيانة في المقابل، قدرت تمن حياتها قصاد حياة أربعة منكم!! قدرت حياتكم بصفر!! للأسف تمنكم كلكم ما عدا داليا رخيص أوي عندها،

الصورة بتقول إن فيه تلاتة هيتضحى بيهم كليًّا، هتتهمكم بقتل جوزها ومعاها دليل، داليا هتفضل تحت التهديد، لكن بدون دليل. أكيد هي عارفاكم كويس، وحسبت تضحي بمين كويس، النقطة المهمة هي موعد الانفجار، إمتى هتسلم الصور دي وتؤذيكم بالفعل!

– المفروض إننا احنا اللي نتحرك بسرعة قبل ما هي تتحرك. قالت إيرين

ركضت احتضنتها وأجلستها، وعايدة تبكي بحرقة:

– عمري ما تخيلت إن حد يكره للدرجة دي! بس أنا مش فاهمة هي ليه بتكرهنا!

– هنعمل إيه؟! ده المهم. رددت عليهم

– نواجهها، –ردت داليا– لازم نواجهها. لعلمكم، الصورة دي ولا حاجة، أي محامي يقدر يطعن في مصداقيتها، بالعكس، احنا اللي في إيدينا نسجنها، احنا القوة، هي ليه مخوفانا وهي القاتلة؟ الخوف حاوطكم، معرفتوش تحسبوها صح، الناس اللي بتحب تعيش زي الطفيليات، على مص دم الناس بيعتمدوا على تخويفهم، يخوفك، يعيشك في جو إنك متهم، مجرم، يوريك دليل أهبل يخوفك بيه، تعيش انت في فوبيا الخوف ده؟! وعشان كده احنا لازم نفهمها إننا مش خايفين.

* * * *

- ٩ -

اتفقنا على أن نواجهها، وضع لنا فادي خطة محكمة، اتصل بها وأخبرها أنه قادم من شرم الشيخ ليقابلها؛ لنضمن وجودها في المنزل في ذلك الوقت. فاجأناهم أثناء تناولهم الغداء، أخبرناها أن هناك تهديدًا وصلنا من المجهول! ارتبكت قليلًا، ثُم ظهر عليها الإنصات والاهتمام، تجمعنا في غرفة المكتب، كان فادي قد اتفق معنا على تسجيل اللقاء، ليكون دليل إدانة نحتفظ به لحمايتنا، بدأت أنا بالكلام:

- وصلنا تهديد من المجهول أنه سيفضح أمرنا غدًا صباحًا إن لم نجمع له مليون جنيه، ونحتاج المال قبل العاشرة صباحًا.

أخذت تضحك مثل المجانين:

- وصدقتوه؟

أجابت إيرين:

– ومنصدقش ليه؟ غريبة إن التهديد موصلكيش يا رندة!

أجابت رندة:

– انتو هبل! مين اللي هيهددكم ويطلب مليون جنيه؟!

ردت عايدة:

– اللي هددنا قبل كده وأخد مننا فلوس يا رندة، ولا انتِ ناسية؟

ارتبكت قليلًا كأنها بالفعل نست خطتها:

– أيوة أيوة فاهمة طبعًا. طيب هتعملوا إيه؟

أجبتها:

– هو انتِ مسمعتيش؟! بقولك عايزين مليون جنيه؟!

– من مين؟

– لا، انتِ النهارده فيكِ حاجة، هو الأستاذ اللي بره ده شربك حاجة؟!

وصلتها رسالة نصية، قرأتها بعينين وجلتين، تغير هدوء وجهها، فجأة وعلى غفلة مني وجدت ضربة نزلت على خدي! تقدمت من الباب وفتحته:

– فاااادي، فاادي.

تصرخ وتنادي عليه كمن نزلت عليه صاعقة كهربته ويستغيث بمن ينقذه، جاء مسرعًا، أوقفته بجانبي وفتحت الرسالة أمامنا، صورة لنا.

* * * *

فادي يقبلني بحرارة.. صورتها لنا إيرين أمس كجزء من خطتنا لانتزاع اعتراف نسجله كدليل إدانة لها. صرخت في وجهه:

- إيه ده؟؟

- اللي انتِ شايفاه، شايفه إيه؟!

- شايفة خيانة.

ضحك بصوت عالٍ، وأجابها:

- بعض ما عندكم حبيبتي.

وصلَة ضرب على وجهه أقوى من ضربتي، أكمل هجومه عليها ليستفزها فتعترف:

- الخيانة انتِ اللي تعرفيها، اللي تقتل جوزها بالسم لمدة أسبوع، كل يوم تحطله السم لحد ما يقع قدامها ميت وتمسكه وتخبطه في الترابيزة اللي بره في الصالة عشان يبان إنه قتل مش مقصود! اللي تكدب وتغرر بصديقات عمرها عشان بتكرههم وعمرها ما حبيتهم، هي دي اللي تعرف الخيانة، إنما أنا وهند بنحب بعض، عشاق نضاف!!

صرخت صرخات متقطعة، وها هي تعترف:

- أنا عملت كل ده عشاااانك، عشان بحبك، قتلته عشان أتمتع بيك وبحضنك، دول! دول مين دول؟ ناس ع الهامش، محدش عايزهم ولا دريان بيهم، مهتم بيهم ليه؟ انت فادي، انت تعيش معايا أنا، أنا اللي أستاهلك؛ رندة بنت الناس، مش دول اللي ملهمش تمن! إيه دول؟ مين عايزهم ولا حاسبهم بشر، يعيوا ولا يمرضوا مين بيسأل فيهم؟ يبقى احنا اللي هنهتم بيهم؟

نظرت لي ولإيرين ولعايدة شاورت علينا نحن الثلاثة، وجهت لنا الكلام:

- انتو، انتو واخدين ع الفقر، هند.. هند دي بقى عايشة على مص دم اللي يقرب منها وترميه بعد ما تمص دمه، كنت عملالها حساب عشان إيهاب، بس خلاص إيهاب بح، خلاص مات، إيرين القديسة بكرهك، الست الطاهرة اللي مش بتغلط فجأة تتجوز مليونير، عايدة، خدامة البيوت بتاعة الشيخ زايد.

تضحك بهستيريا، ترمي بكلام فج غير محسوب:

- رومي! عملالنا رومي يا شحاتة.. بتسرقي أسيادك اللي بيدولك مرتبك، حتى عفشهم سرقتيه، انتِ حرامية، لأ وفادي يا حرام بيدافع عنك! كلكم تستاهلوا الموت، كلكم حثالة، مواطنين درجة تالتة، إنما أنا ودااليا لأ؛ احنا الأسياد وانتو البق.

ركضت لمكتب وليد وهي تضحك بجنون واضح على وجهها، استشعرت أنها تركض لتحضر مسدسه! أرسلت رسالة نصية سريعة للشرطة -التي كانت ضمن الخطة أن تكون بالانتظار بالخارج تحسبًا لأي خطر يمكن حدوثه- أشرت للجميع بالخروج سريعًا، ركضنا خارجين من الغرفة للصالة، دخلت الشرطة وأحاطوها، كانت قد أمسكت بالمسدس بالفعل. مرَّت دقيقة، سمعنا بعدها صوت رصاصة، قتلت رندة نفسها! جاءت الإسعاف فورًا، ولكن لا أمل، تُوفيت في لحظتها.

* * * *

كابوس يومي ينتابنا جميعًا منذ ذلك اليوم، تم القبض علينا جميعًا، وجهت لنا تهمة إخفاء جثة، وكَّلنا محامي كبير، استطاع أن يثبت أننا فعلنا ذلك تحت التهديد. خرجنا من التهمة، ولكن لم نخرج كما دخلنا، نزعت منا الأيام كل ما فينا من خير وشر، أصبحنا لا شيء، مجرد جمادات متحركة، سلبت منا التجربة أي أمل في غد، من أي أمل أن نقابل ناس أنقياء، أوفياء. ماذا تبقى في الدنيا من مآسي! لقد امتلأ ألبوم صور تجاربي بالسواد! آخر ما قالته رندة لنا كان حقيقيًّا، نعم كلنا على الهامش، كلنا لا ثمن لنا، إن مرضنا أو هرمنا أو أصبحنا في عوز، فقط الكريمة هي التي تكسب، وإن مكانش ليك ضهر ستذبح، يجب أن أعترف بذنبي. نعم أنا بق يريد أن يعيش ويبرر لنفسه كل أفعاله، أنا القاتل والمقتول، أنا الظالم والمظلوم.

حضرنا الجنازة بعد أسبوع من الحادثة، ديما تبكي أمها وأبيها وبقاءها وحيدة بعد موتهم الذي كان موتًا صعبًا وغير متوقع! بكينا بحرارة، بكينا صديقة عمرنا التي قتلت قلوبنا ثم قتلت نفسها.

بعد انتهاء القداس، أخبرتنا ديما أنها تريد أن تقابلنا قبل أن تعود لدبي مع زوجها! اتفقنا معها أن نتقابل عند داليا، تجمعنا بعد يومين عند داليا، وقفت ديما:

- أشكركم على حضوركم عزاء ماما، فيه رسالة من ماما عايزة أقرأهالكم. "ازيكم، الرسالة دي أنا بكتبها تاني يوم عيد ميلادي اللي فاجئتوني بيه، أنا عارفة إني سببت ليكم كتير من الآلام والمتاعب، لكن انتو مخلصين، قدر المخلصين إنهم يتعذبوا من اللي حبوهم، هي كده الدنيا، أنا بعترف إني أذيت نفسي وديما ووليد، أنا عندي اعتراف ليكم، أنا عمري ما حبتكم، معرفش السبب! لكن اعذروني مقدرتش أحبكم، ومع ذلك أنا عايزة أجمعكم في وصيتي.. ديما معاها تفصيل الوصية، عيشوا حلوين، مع السلامة."

رندة ماكين

أحسست بطيف رندة في الغرفة، كل منا متكتفة تبحث عن دفء بداخلها يطمئنها، شعور بالألم ينتابني، أشعر أن الكل هنا يشعر بذلك الألم، أسبح في طيف الذكريات، لا أعي ما يحدث؛ رسالة رندة متناقضة، تنم عن إنسانة

عاشت تائهة ماتت قبل أن تصل إلى بر السلام النفسي وتنهل من معين التسامح! رفضت كل من عاشرت، حتى ابنتها لم تكن يومًا صديقة لها، منحتها فقط المشاعر الفطرية، لم تحاول أن تقترب منها. انعزلت عن الجميع، قليلة الكلام والمشاعر!!

كسر الصمت عودة ديما تشرح لنا الوصية التي أخبرت عنها رندة في الرسالة:

- أولًا: فيه أمانة ليكم من ماما..

ناولت كل منا ظرف متوسط الحجم، ليس مكتوب عليه أي شيء يدل على محتواه، من ملمسه أعتقد أنه مبلغ مالي.

ديما:

- دي مبالغ كانت ماما استدانتها منكم وطلبت مني إني أرجعها. ثانيًا: ماما اختارت الفيلا دي تفضل تجمعكم، مفتاح الفيلا هيكون مع واحدة منكم من حقها تعيش في الفيلا لو تحب، كده يفضل دور ماما موجود في لقاءاتكم، ممكن تعرفوني اختياركم بكره عشان أسلمكم المفتاح، فكروا، أنا لازم أمشي عشان رامي منتظرني بره!

قبلتنا ثم انصرفت، وتركتنا في حيرة. أخبرتهم:

- أنا لا أريد أن أقبل تلك الفكرة، ليس علينا أن نقبل العرض من أساسه، هذه الفيلا تسكنها لعنة تعشش فيها الكراهية، كرامات أهدرت، حب مزيف وأرواح قتلت، لا أريدها أبدًا.

إيرين:

- معكِ حق، لمَ تترك لنا وصية وهي لا تحبنا؟ اعترفت أنها لم تستطع أن تحبنا.

داليا:

- عاشت وماتت بدون أن نفهمها أو نعرفها جيدًا!

عايدة لا تتكلم، صامتة، لا تريد أن تعطي رأيها، قررنا أننا سنرفض.

* * * *

- ١٠ -

في المساء، خرجت لمكاني المفضل لبث أحزاني؛ كورنيش النيل، قررت أن أشتري ترمسًا، كنت أعتبره قذرًا مميتًا، أنستني دنيتي الجديدة أصولي، أنستني كيف تربيت على يد سيدتين مكافحتين لم يغمض لهما جفن في تربيتي حتى جعلتا مني شخصية قوية مستقلة، علماني في أحسن المدارس في وقتنا، لم يهنأ لهما بال إلا وقد فعلتا ما أحب وما أطلب، جعلتا مني من أنا اليوم. كانت فسحتنا هنا على الكورنيش، نتنسم عبير النيل. لم نكن من قبل نأبه بالأماكن، وإنما كنا نهتم بالبشر، بالصحبة. هنا على هذا الكورنيش حكونا الحكايات، ضحكنا الضحكات، تلذذنا بالطيبات.

اتصلت بديما في اليوم التالي نعتذر عن قبول الوصية. فاجأني ردها:

– تعتذروا عن إيه يا طنط هند؟

– عن قبول الفيلا.

- ازاي يا طنط! طنط عايدة كلمتني وبلغتني موافقتكم والمفتاح في الطريق ليها، هيكون عندها بعد دقائق، أنا الآن في المطار، يجب أن أودعك الآن.

أغلقت الهاتف معها وأنا مندهشة؛ خيانة أخرى! أبلغت داليا وإيرين بما فعلته عايدة، تقابلنا في نهاية اليوم، لم يكن هناك بديل لذهابنا لها ومعرفة لمَ فعلت هذا من وراء ظهورنا؟ لماذا لم تخبرنا عن رأيها ونحن في الجلسة أمس؟!

الطمع يفسد النوايا،

وغنى البطل يقل

والجامع بيده يزداد!

جلسنا في الصالون عند عايدة تنظر لنا وننظر لها! تكلمت داليا؛ فهي الشخصية المناسبة لتتحدث الآن، أنا سأنفعل، إيرين وعايدة لم يكونا على وفاق الفترة الأخيرة منذ نعتتها بالكافرة، ما زال هناك رواسب واضحة في قلب إيرين.

داليا:

– ليه يا عايدة؟ ليه مقولتيش رأيك بصراحة امبارح، ليه اتصرفتي باسمنا وانتِ عارفة إننا رافضين ناخد الفيلا دي؟!

وقفت عايدة في منتصف الغرفة، تنظر لكل واحدة منا وقد وضعت يدها متكتفة أمام صدرها:

– متحاسبونيش، حاسبوا نفسكم!

نظرت لها، سألتها:

– نحاسب نفسنا على إيه؟

نظرت لي:

– عن ذنوبكم، عن خطاياكم، كلكم دلوقتي شرفاء ومش بتغلطوا!

إيرين:

– اسمحيلي يا عايدة، بس ده ماله ومال الفيلا؟!

عايدة:

– يبقا متحسبونيش.

داليا:

– جاوبي يا عايدة.. ليه مقولتيش رأيك امبارح؟!

صاحت عايدة:

– عشان انتو رافضين، انتو مش عايزينها، مش محتاجين، متعرفوش معنى أن يقع في حجرك فجأة بيت زي ده، واحدة زيي بس اللي تعرف قيمته.

تكلمت أنا:

– بس ده بيت ملعون، مليان خيانة، قلوب مضلمة، قتل، انتحار، دم، وأشباح ذكريات سيئة.

ردت عايدة:

– كلام فاضي، انتو بس مش عايزني أبقى زيكم، عايشة في عز.

ضحكت ساخرة:

– أنا مش عايشة في عز، أنا مكافحة زيك بالظبط ووحيدة.

خرجت منها نبرة استهزاء وسخرية:

– انتِ! خلينا ساكتين بس.

فجأة تحولت عايدة لشخص لا نعرفه، بدأت في إلقاء أقذر الأوصاف علي.. نعتتني بالعاهرة! صمتوا جميعًا، وقفت، اقتربت منها، أخبرتها:

– أنا لست عاهرة يا أم رانيا، لقد سامحتِ عهر ابنتك العذراء وتريدين جلدي أنا؟!

لطمتني لطمة قوية على وجهي! كدت أن أردها لها لولا أن إيرين أمسكت بيدي وأخرجتني، لحقتنا داليا بعدها بدقائق. لا أكاد أصدق أن تحول الدنيا الأبرياء لأشرار، فيبيعوا صداقة طيبة ومحبة سنين وعشرة عمر! اختارت عايدة أن تنفصل عنا بكسرها قرارنا وجميع أكواد الصداقة الحقةن هي أيضًا لا تحبنا إذن! رندة كانت أشجع منها وأخبرتنا.

* * * *

داليا نفذت هجرتها العكسية. تركتني وإيرين وحدنا، ترسل لنا صورًا جميلة، أغرت إيرين، أشعر بذلك!

– صفصفت علينا –قالت إيرين وهي تناولني فنجان القهوة– بس خايفة أقولك، موريس بيفكر في الهجرة هو كمان.

نظرت لها:

- متوَقَع، محدش عايز البلد، ليه مش عارفة! بلدنا حلوة، بس احنا اللي وحشيين، راحت البساطة مع أطماع البني آدمين! دلوقتي مصر بقيت ضيقة عليكم خلاص، مكنتش سايعة أهالينا وجدودنا وأهاليكم وجدودكم؟؟ مصر مخرجتش أنوار للدنيا؟؟ هو الإبداع بيتولد إلا من ناس بتحب وبتعشق، ناس بتعرف تضحك إمتى وتبكي جروحها إبداع إمتى، مكانش فيه التيه اللي الناس عايشاه دلوقتي، مصر واسعة وحنينة، مصر شالت حضارات على أرضها، شالت مهاجرين ومشتتين، وبتاخد في حضنها لحد النهارده قلوب باكية وحقائب فارغة، لكنها تبهجهم فورًا. يدخلونها آمنين، يأمنوا ويستقروا ويسعدوا، يكبر أولادهم وينزرعوا في هذا البلد، يأبوا أن يتركوه، بل يحلفوا بطهر ترابه فيقرروا أن يدفنوا فيه! وأنتم، أنتم أبناءها تتركونها! تتركون ثغوركم ليسكنها الغريب؟!

لم يبقَ إلا أنا، إيهاب انتهى به الحال عاجزًا عن الكلام والمشي وفقدان جزئي للذاكرة، استشرت أكثر من شخص وأكدوا على أن زواجي العرفي غير معترف به، ولا يضمن لي حقوقًا زوجية ولا مدنية ولا شرعية. قررت أن أقطع الأوراق وأنهي تلك الرحلة التي بدأت في الخفاء وانتهت في

الخفاء، أعلم أني ربما أكون أنانية، لكن كما كنت قد قررت، أريد أن تكون هند سعيدة.

ما زلت أبحث عن كلمة السر التي تحلو بها الحياة، ربما الرضا، ربما الصبر، ربما الإيمان، لا أعلم! لا أشعر بها لليوم. وحيدة، عدت وحيدة تمامًا هذه المرة، لا يؤنسني إلا تمشية الكورنيش ليلًا، صاحبت بائعي الترمس والبطاطا، حفظت وجوهًا تأتي مثلي كل يوم.

اتصل بي فادي الذي ابتعد عني هو الآخر بعد ما حصل يوم مقتل رندة، لم نعد كسابق عهدنا، كلمني ليخبرني أن افتتاح القرية السياحية بعد أسبوع، لم أكن أعرف أنها قرية سياحية، كان قد أخبرني أنه مطعم وكافيه، اعتذرت له؛ لن أستطيع. أصر عليّ أن أذهب، أخبرته:

– سأفكر.

قاومت رغبتي بالذهاب كثيرًا، ولكن على آخر لحظة يومها صباحًا، ذهبت بالطبع؛ إنه فادي. استقبلني بشوق وقبل خدي، عرَّفني على صديقته الجديدة، فرنسية شقراء، تعمل في القرية موظفة استقبال، حييتهم وذهبت لغرفتي، لا أعلم ما أصابني، ولكني ربما كان عندي أمل أن يكون فادي آخر قشة تبقيني على قيد الحياة! رغبتي في الحياة نزلت لتحت الصفر في الفترة الأخيرة.

الجميع لديه ما يجعله يستمر، أما أنا! فليس عندي إلا الحَب. نظرت لوجهي في المرآة، لم أذهب لموعدي السنوي لدكتور باسيلي، يبدو عليّ الكبر فجأة، من يريد من مثلي! ذهب الجمال الطبيعي ولحقه الجمال الاصطناعي.

تهيأت في أجمل ثيابي، نزلت للحفل، الكل يضحك ومبتهج، كل في يده حبيب أو صديق، أما أنا فوحيدة، لم أتجاوب مع أي ممن اقتربوا للتعارف، هذه الحفلات لا تكون بريئة -على الأغلب- أرمق فادي من بعيد يتراقص مع صديقته الفاتنة.

أكلت قليلًا، شهيتي مختفية منذ شهرين تقريبًا، أقول لنفسي: "هرمونات"، فدورتي الشهرية أيضًا مختفية منذ ثلاثة أشهر.

اليوم التالي كان هناك رحلة بحرية، أعشق الرحلات البحرية، لاحظت أن ملابس السباحة تظهرني ممتلئة على غير العادة! أنا لا آكل وأسمن! هرمونات.. نعم هرمونات.

تجمعنا للرحلة، قضينا يومًا ممتعًا، الجو كان مشمسًا ودافئًا، السماء تسبح فيها بعض الغيمات الصغيرة، الضحكات، الملابس، الرقص، الفخامة، حياة مبهجة، لماذا لا نكون جميعًا سعداء دائمًا؟! العطور وروائح السيجار والدخان اختلطت، فسببت لي شعورًا بالغثيان رهيب، ركضت لكي أصل إلى أقرب مرحاض، أفرغت ما في معدتي. ما زلت غير متزنة، لم أشعر بنفسي إلا وأنا مستلقية وهناك من يحاول إفاقتي. وصلنا للقرية، ساعدني

فادي للصعود لغرفتي، الحقيقة كان جنتلمان كعادته، صنع لي مشروبًا دافئًا وأحضره لي، اقترح أن نطلب طبيب الفندق، أخبرته سأكون بخير، ولكنه أصر، أخبرني:

– ماذا سنخسر!

– لا داعي.. سأكون بخير، أشكرك. أجبته

مرت أيام الرحلة، وكأنها جاءت في وقتها، كنت على شفا الانتحار، أيام كاحلة مرَّت بي، تبعثرت جمعتنا، بقيت إيرين فقط، وها هي اقترب موعد سفرها لأميركا. أفكِّر في المستقبل، ماذا سيكون شكل حياتي الجديدة؟ عمل ووحدة! كلما تخيلت تلك الحياة أشعر أني لا أريد أن أعيش يومًا آخر! هل أهاجر معهم؟ أترك بلدي! لا لا لن أفعل ذلك، ما زلت أشعر بدوار وقيء، بدأت أقلق، قررت أن أزور الطبيب، طلب عمل عدة تحاليل. طلبني للعيادة بعدها للاطلاع على نتيجة التحاليل:

– مش عارف إذا كان ده خبر كويس ولا لا.. انتِ حامل.

– كيف؟!

أجبته مفزوعة لا أصدقه! أجابني بلطف:

– ده أمر ربنا يا مدام.. عمومًا مبروك.

– سأجهضه.

جاوبني وهو لا ينظر لي:

– للأسف ده مش موضوعي، احنا مش هنقتل نفس ربنا قدر لها تعيش.

اتصلت بإيرين:

– تعالي بسرعة، مصيبة.

جاءتني، احتضنتني:

– ده خبر حلو أوي أوي، انتِ زعلانة؟!

– تفتكري إيه! أفرح؟!

– طبعًا تفرحي؛ ده ربنا بيحبك، دي حياة جديدة كتبهالك.

– مع مين؟

– هو مبدئيًا مع البيبي، وأنا شايفة لازم تكلمي فادي؛ دي مسؤوليته كمان.

– فادي! هقوله إيه؟!

– تخيلت السيناريوهات كلها، لا يوجد سيناريو واحد في صالحي يا إيرين!!

– وليكن، احنا هنبلغه، إذا أحبَّ أن يتحمل معكِ المسؤولية أهلًا وسهلًا، مش مطلوب منه إلا إثبات البنوة.

– طيب أعمل إيه؟! أكلمه ولا أطلب أقابله.

– تطلبي تقابليه طبعًا، عندي وموريس موجود.

استضافونا. فادي ليس عنده أي فكرة عن الموضوع حتى الآن، تلعثمت، أتصبب عرقًا، لا تسعفني كلماتي، أتنفس بصعوبة. الآن أبكي، تدخلت إيرين:

– فادي، هند عندها خبر، هند حامل.

انتصب واقفًا، مد يده لي. وجه كلامه لإيرين وموريس:

– شكرًا على استضافتنا، لكن أعتقد الأمر ده الأفضل يكون بيني وبين هند بس!

أوصلني للبيت، واستأذن أن يأتي في الصباح!

* * * *

- ١١ -

الفصل الأخير

فادي ..

مرَّ يومين ولم أتواصل بعد مع هند، نزل خبر حملها عليّ كالصاعقة، لم أستطع أن أبقى ولو لدقيقة واحدة، لم أتزوج في حياتي إلا مرة واحدة فشلت في أقل من عام من أن أبقيه قائمًا، الآن أنا على مشارف الستين، أبلغ من العمر ثمانية وخمسون عامًا! الآن يظهر لي فرصة أن يكون لي ابن أو ابنه؟! من سخرية القدر أن أقابل تلك العائلة الأسبوع الماضي؛ شاب وشابة في الثلاثينيات، ومعهم طفل حوالي أربع سنوات، جماله كاكتمال القمر بدرًا، لفت نظري يومها وأنا أتسوق أغراضًا من السوق، جثوت على ركبتاي لألاعبه:

– اسمك إيه؟

أخبرني:

– خالد.

استسمحت أبويه أن أقبله، لم أدرِ أن القدر حنن قلبي لهذا الطفل لأكون مستعدًا أن أستقبل الخبر بعدها! إن كنت سأكون أبًّا على أية حال، فيجب أن أكون على قدر المسؤولية الكاملة! أما إن لم أكن على استعداد فيجب أن أتفاهم مع هند لإسقاطه، ليس هناك حل ثالث، لا أستطيع أن أحدد الآن. هند في التاسعة والأربعين من عمرها، ربما أراد الله لها أن تحمل بطفل في هذا العمر ليكون لها سندًا وصاحبًا لها في وحدتها. أُشفق عليها من تقلبات الدهر التي مرَّت بها، هي رقيقة وطيوبة، جميلة وجدعة، ولكن المشكلة عندي أنا؛ أنا لم أستقر في حياتي!

هل أحببتها؟ نعم أحببتها، لا أستغرب، إنه ذلك الشعور، أنك انجذبت لشخص حتى وإن كنت رأيته لمرة واحدة، تشعر أنك تعرفه منذ زمن فتتعلق أرواحكما؟ نعم هذا ما حدث عندما التقيت هند لأول مرة. لا لا أستطيع أن أحرمها هذا الغالي الذي في رحمها، ولكن هل هي تفكر مثلي؟! هل هي تريد أن تحتفظ به بالفعل! لا أستطيع أن أسألها، ستفهم فورًا أني أتنصل من المسؤولية! ما كل هذه الحيرة التي أنا فيها! لا زلت في حيرتي، ولا زلت في القاهرة، لن أعود إلى شرم حتى آخذ قرار؛ بل القرار... قطع تفكيري رسالة من هند! يا إلهي! ها هي قد استبطأت ردي.

- "عزيزي فادي، أعلم شدة وقع الخبر عليك، أنا لا ألومك؛ فقد كان الأمر صاعقًا لي أيضًا، ولكن أقسم لك أني لم أخطط لهذا، ولم أكن مستعدة له في يوم من الأيام، وأعلم أنه كان خطأ وقعت أنا فيه في لحظة ضعف نسيت نفسي، أنا لا أُلزمك من الآن بأية مسؤولية عن الطفل، فقط أريدك أن تعلم أنه سيسجل باسمك لأنه ابنك! أقسم لك، لم يلمسني أي رجل خارج الزواج غيرك، لا أعلم لماذا لم أقاومك! ربما أحببتك، وربما أحببتني فوصلتني مشاعرك! أنا قررت أني سأحتفظ بالطفل، إيرين أقنعتني أن أحتفظ به؛ فهو سيكون حبل صلتي بالحياة، أنا وحيدة وهو عطية الرب لي، ولن أرفض عطايا الرب، ليلة افتتاح الريزورت كنت أفكر أن أمشي لقلب البحر وأسلمه نفسي، أسبح فيه لرحلة سرمدية! ثم كان هناك من يتبادلون القبل على الشط، لم أتجرأ أن أقطع لحظة سعادتهم، قررت أن أقوم بتأجيل قراري لليوم التالي، لكني اكتشفت فيه أني حامل، لقد عرفت قبل أن أذهب للطبيب أني حامل، مشاعر الحمل غريبة، تعرفها المرأة ليلة لقاءها مع حبيبها، لا أعرف ولكن أنا شعرت أني حامل صباح يوم كنت معك، أحسست أن الله يخبرني: أنا معك، لا تيأسي من روحي، سأرسل لك حياة جديدة، لا تستسلمي للموت، أمامك مهمة. أنتظر ردَّك".

لم أتمالك نفسي، أنا الآن أبكي؛ أبكي بحرقة، لو كانت أمامي لاحتضنتها وقبلت رأسها، أرسلت لها ردي:

– انتظريني في شقتك، سأكون عندك بعد ساعة لأخبرك بقراري.

ردَّت:

– منتظراك، مهما كان قرارك سأتفهم؛ لأني أنا سعيدة.

* * * *

كلمة السر:

ضميرك الذي تتباهى به لا بد أن يختبر، فلتكن جميلًا مع البشر.

انتهت ٨ فبراير

٢:٣٥ ص